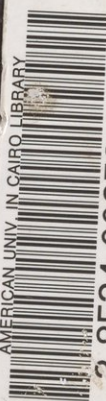


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00852 9004

7
N
Z
19



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

The A

من مكتبة

الجامعة الامريكية بالقاهرة

ppp is the man that
ndeth wisdom and
e man that getteth
nderstanding .+ .+.+

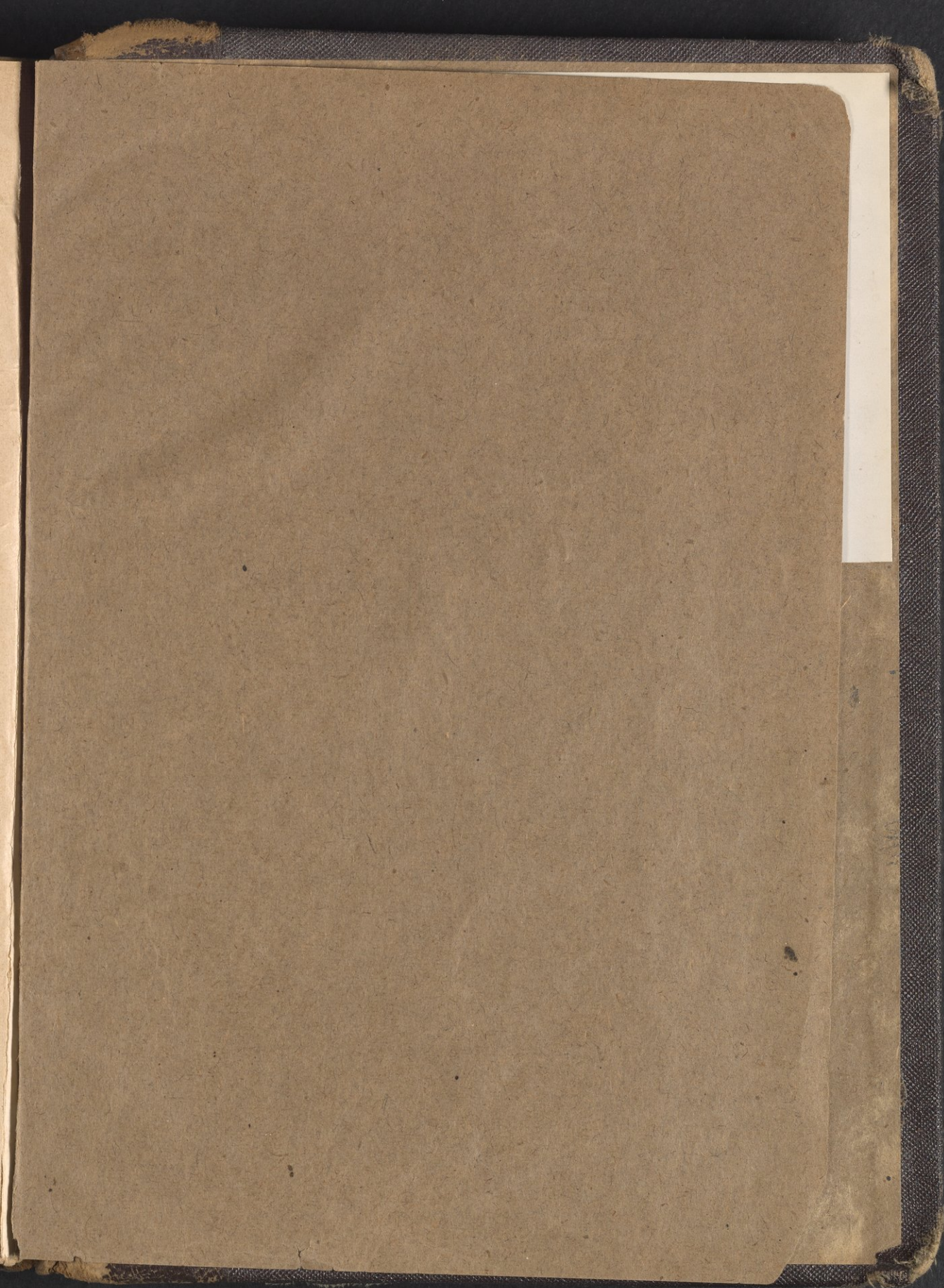
PROVERBS 3-13

Ex libris datus

in memoriam

James Polk Mc Kinney
Pittsburgh, Pennsylvania

16



00-87400

2nd oct 23th

1815

نفسية أبي نواس

PS

7701.6

N 8

Z 7

1953

بقلم

الدكتور محمد التوبهي

أستاذ كرسى الآداب العربية

ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الخرطوم الجامعية

المحاضر الأول بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن (سابقا)

الطبعة الأولى

مايو ١٩٥٣

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي - باشا - القاهرة

928.92
ab-94N
Mek-

LIBRARY OF THE
UNIVERSITY OF
TORONTO

B12020424
15449476

cclc

32427464

۸۱۱، ۳۰۹

ابو نواسه

۷۰

31550

فی

فی

///

فهرس

الفصل الأول : الخمر

صفحة

٥٨ — ١ تعقد نفسية أبي نواس . تنوع عواطفه نحو الخمر . عاطفة
الحب . مقدار حبه للخمر . عاطفة الاجلال . احتقار
المسلمين للخمر وشاربيها . الخمر والذوق المتحضر المذهب .
عاطفة التقديس الديني . عبادة الخمر في معظم الأديان .
الخمر كائن حي . الخمر روح . الخمر إله . الانفعال الحسي
والانفعال الروحي . نشوة الخمر ونشوة الدين . شعوره
الجنسي نحو الخمر . الخمر أنثى . شعوره البنوي . الخمر أم .

الفصل الثاني : الشذوذ الجنسي

٥٩ — ١٢٠ شغفه بالظلمان . صدود النقد عن هذا الموضوع . أهميته
الحقة في فهم نفسيته وفنه . مبلغ حبه للظلمان . عزوفه
عن النساء . نوع علاقته مع النساء . أسباب الشذوذ
الجنسي . عوامل التكوين الجسماني . عوامل التربية
النفسانية . الظروف الاجتماعية . الشذوذ وانحلال
الحصانة . الشذوذ والفنانون . هل نقبل تبريرهم ؟

أسباب شذوذ أبي نواس . أكان شذوذاً جسمانياً ؟
نشأته واحداث طفولته . ظروف مجتمعه . الشذوذ
في الحضارة الاسلامية . رابطة الأم هي سبب اشمئزازه
من النساء . المغزى الصحيح لقصته مع جنان . آثار
شذوذه في شاعريته . غزله بالمذكر . عاطفته الجنسية
وعاطفته البنوية نحو الخمر . التعويض وتحقيق النزوع
الفاسق .

الفصل الثالث : النشوة الدينية

١٢١ — ١٧٢ هل كان زنديقاً أو متشككاً ؟ اقتناعه بصحة الاسلام .
منزلة المؤمن العاصي . إيمانه العميق بالله . أمله العظيم في
رحمته . اقتناعه بالطقوس المسيحية . محاولته الجادة
في التوبة والصلاح . شعره في الزهد . فترات التقوى
والورع عيوفه اللذة وكثرة تفكيره في الموت . التوفيق
بين جانبي نفسيته . هل تاب توبة نهائية قط ؟ امتزاج
النشوتين الدينية والجسدية في بعض فتراته . العلاقة بين
النشوتين . عبادة الرموز الجنسية في الأديان البدائية .
العنصر الجنسي في التعبد المسيحي . لدى عامة المسلمين .
لدى الصوفية . ظاهرة التحول في حياة القديسين وكبار

العباد . اضرار الرهبانية . سلامة الاسلام واعتداله .
صفاء شعائره من الغرائز المكبوحه . سر افتتان أبي نواس
بطقوس المسيحية .

الفصل الرابع : اندفاع فاحلال

١٧٤ - ٢١٨ دعوته إلى الاباحية . تطرفه في هذه الدعوة . سببه :
زعزعته النفسية . عدم نضوج نفسيته . اندفاع هستري .
التشهير بالنفس . الاشتزاز من النفس . الانتقام من
النفس . الشعور بالذنب . سخطه على التوائه . ارتداد إلى
عدم مسئولية الطفولة . سبب جديد لحبه للخمر . تهربه
من حقائق الحياة . فراره من الذكريات المؤلمة . محاولته
الهسترية في تجاهل الحقائق المحزنة . تفاقم اضطرابه
وزعزعته . إشرافه على الجنون . دواؤه الأعظم : الخمر .
الخمر دواء شر من الداء . الرد على أنصار الخمر . ازدياد
أمراضه واختلالاته . ميته الفظيعة . الأعذار المخففة .
مدى تأثيره بمؤثرات عصره . شيوع الخمر والظلمان .
انشار النفاق في عصره . إلى أي حد تأثر ببيئته وإلى
أي حد أثر فيها . تزعمه للسلوك الجديد وتحويله إياه من
هزل وتطرف ومعاينة إلى مذهب جاد عظيم الحرارة
والاندفاع .

1845

1846

1847

1848

1849

1850

1851

1852

1853

1854

1855

1856

1857

1858

1859

1860

1861

1862

1863

1864

1865

1866

1867

1868

1869

1870

1871

1872

1873

1874

1875

1876

1877

1878

1879

1880

1881

1882

1883

1884

1885

1886

1887

1888

1889

1890

1891

1892

1893

1894

1895

1896

1897

1898

1899

1900

الفصل الأول

الخمر

تعقد نفسية أبى نواس . تنوع عواطفه نحو الخمر . عاطفة الحب ، مقدار حبه للخمر . عاطفة الإجلال ، احتقار المسلمين للخمر وشاربيها ، الخمر والذوق المتحضر المذهب . عاطفة التقديس الديني ، عبادة الخمر في معظم الأديان ، الخمر كائن حي ، الخمر روح ، الخمر إله . الانفعال الحسي والانفعال الروحي . نشوة الخمر ونشوة الدين . شعوره الجنسي نحو الخمر . الخمر انثى مشتهة . شعوره البنوي . الخمر أم .

ليس أدل على تعقد نفسية أبى نواس من تأمل موقفه نحو الخمر وتحليل العواطف المتباينة التي أثارها فيه .

حقيقة مشهورة : أن أبانواس أحب الخمر حباً جما . ولكن هذا الوصف العام المبهم ليس فيه غناء كبير ، بل يلزمنا أن ندقق النظر في هذا «الحب» ، فنجد أنه يتكون من عناصر شتى متضاربة متفاعلة ، وهذه العناصر قد تولدت عن تكوينه النفساني الخاص وانسجمت

انسجاما تاما مع مقومات شخصيته المتميزة التي لم تشبهها شخصية أخرى .

لم يكن حبه للخمر من نوع حب أحدنا لشراب لذيقه ، لم يكن كحب أحدنا لعصير البرتقال وحب آخر لعصير الليمون . بل لم يكن حب شارب الخمر العادي لها ، يتلذذ بشربها ويرتاح لطعمها ويسر بفعلها في جسمه وأعصابه ويطرب لتنشيطها لروحه وصقلها لمزاجه . صحيح أن أبانواس أحب من الخمر هذه الأشياء ، ولكنه أحب شيئا آخر ، أحبها «هي» ، بالإضافة إلى صفاتها الكثيرة الحسنة ، وبالرغم من صفاتها الكثيرة المذمومة .

أحب أبو نواس الخمر كما يحب أحدنا شخصا عزيزا عليه قوى
الامتلاك لقلبه ، ولدا أو والدا أو زوجا أو صديقا حميما ، يحبه لصفاته
الخيرة ، ويحبه برغم صفاته المردولة ، بل يحب فيه أحيانا صفاته
المردولة هذه ، يحبه «هو» . يحبه لأنه مخلوق خاص متميز عن سائر
المخلوقات ، وإن كان في سائر المخلوقات من يفضلها ، يحب منه ماله
من «شخصية» ، فهذه الشخصية المستقلة قد صارت لها مكانة عجيبة في
قلبه ، وصلة شديدة بكيئوته ، ووشيجة لا تفصم بحياته وماضيه
وحاضره وبما يأمل في مستقبله ، أو إن هي انفصمت خيل إليه أنه قد
فقد جزءا حيويا من كيئوته وأن شخصيته قد انهار منها ركن
جوهرى .

فالخير لم تعد له مجرد شراب ، كائنا ما كانت مزاياه ومحاسنه ، بل
 صارت مخلوقاً ذا شخصية ، فردا له ذات قائمة بنفسها ، وهذه الذات
 تأتلف مع ذاتية أنى نواس وتتصل بأعمق أسرار نفسيته اتصال التوأمين
 السياميين لا انفصال بينهما مادام حيين ، فان تطرق العدم إلى أحدهما
 ففى الآخر سريعاً .

فهو حين يقول :

عاذلى فى المدام غير نصيح لا تلمنى على شقيقة روحى

يقصد ما يقول بالحرف ، لا يستعمل مجرد أسلوب مجازى يصور
 به مدى حبه الكبير لها ، بل يعنى إنها فعلاً «شقيقة روحه» ، كما تصير
 زوجة أحدها بعد طول العشرة له شقيقة روح ، أو كالوشيجة المتينة
 الباقية بين الولد والأم .

وهو يصف تعلقه بها وعطوف نفسه إليها عطوفا مقيماً لا ينشئ

يخنج القلب إليها فى الهوى اى جنوح

عطفت نفسى عليها بهوى غير نزوح

ثم يصيح :

تلك - لا أعدمنها الله - روحى دون روحى

دون أن يقصد مبالغة شعرية ، بل إنه يصف شعوراً صادقاً يجده
 واقعاً فى نفسه يدلّه بها فهو لا يطبق الحياة بدونها ولا يفهم لوجوده
 مغزى مستقلاً عن وجودها .

وهو حب حرارته لا تخلو من اللذع ، فهو يمتزج دائماً بالايلام
وتفطير القلب ، وهذا ما نجده في قوله :

دارت فأحيت غير مذمومة نفوس حرّاها وانضائها
فها يتفطر قلبه هيأما بها ويلتهب تحرقاً إليها فلا يكون برؤه
وهدوؤه إلا بليهاها . وكذلك تجد رنة الأسى ولهفة الوجد في قوله
الا لا تلمنى في العقار جليسى ولا تلحنى في حبها بعبوس
لقد بسط الرحمن منى مودة إليها ومن قوم لدى جلوس
تعشيقها قلبي فبغض عشقها إلى من الأموال كل نفيس
وهي كما ترى أبيات عظيمة الجوى ، وسبب حزنه أن لهفته هذه
لهفة غلبة لا يستطيع مقاومتها ولا يطيق الفكك منها . فهو يتوسل
إلى جليسه بنخمة عظيمة الضراعة الايلومه في حب قد فطر عليه ولا
يقدر على التحرر منه .

و حين تقرأ بيته المشهور

دع عنك لومى فان اللوم إغراء وداونى بالتي كانت هى الداء

فلا تقصرا اهتمامك على براعة قوله إن اللوم إغراء أوجودة وصفه
لها بأنها الداء والدواء ، فهذا على حسنه وإمتاعه ليس السر الحقيقى
لروعة هذا البيت ، وهو معنى ليس جديداً على الشعر العربى على أى
حال ، ولكن فكر مليا فى «الشعور» الذى صدر عنه البيت ، فى هذا
الوجد الجامع الجارف وهذا الاندفاع الذى يكتسح أمامه كل شىء ،
لا يأبه بلوم من الناس ولا يصدّه ما فى المحبوب من عيوب ونقائص

فاقرأ هذا البيت — إن أردت أن تعتمر منه كل قوته التأثيرية —
بأقصى ما تستطيع من الحنان والتهجد الذى يبلغ حد البكاء .
وإليك الآن هذه القطعة المشهورة التى تحدث القدماء والمحدثون
طويلا عن براعة الوصف فيها .

ودار ندامى عطلوها وادجلوا بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى واضغات ريحان جنى ويابس
حبست بها صحبى فجددت عهدهم وإنى على أمثال تلك الحابس
ولم أر منهم غير ما شهدت به بشرقى سبابط الديار البسابس
أقمنا بها يوما ويومين بعده ويوما له يوم الترحل خامس
تدور علينا الراح فى عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها مهى تدرىها بالقسى الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس
هى بارعة لاشك فى وصفها ، وصفها الدقيق لتلك الساحة المهجورة
وما ترك بها من آثار القصف وبقايا مجلس اللذة ، ووصفها الدقيق
للكأس وتصاويرها ومستوى الخمر والماء فيها . ولكن براعة الوصف
لا تفى بسر تأثير الأبيات فى نفس القارئ ومبلغ ابتعاثها لشجنه ،
إنما السر هو «العاطفة» الكامنة من وراءها ، وهى عاطفة الشوق الحزين
الأسى ، يشيع فى كل بيت من أبياتها ويشيع فى روى السين الذى
اختاره الشاعر لقافيتها . هاج به هذا الشوق حين مر بذلك المكان
وتأمل فى مخلفات مجلس الشراب . فان أردت تمثل العاطفة فتخيل حالة

أم فقدت ولدها ومرت سنون طوال . ثم هي تعثر فجأة في بعض أركان البيت على بعض ملابس أو لعبة أو غير هذا من متاعه . قيص صغير قد حال لونه الزاهي مر السنين ، أو حذاء لا يزال جديدا كأنما خلعه بالأمس ، أودمية تبين فيها الندوب التي خلفها جذبه وكدمه . وفكر في هياج حنينها واستعار لوعتها تكاد تمزق صدرها . فترفع إليها هذه الأشياء تضمها إلى صدرها وتشممها وتقبلها وتفرقها بدموعها . وتهم بتركها والمضي في عملها المنزلي وإن كان يخلبها الجوى ثانية وثالثة ورابعة وخامسة .

على أن هذا الحب الطاغى إن كان يحمل الحب على الأسى واللوعة حين يفكر في محبوبه ، فهو يحمله على الغضب والتحدى حين يواجه العاذلين ويسمع منهم اللوم . استمع إلى هذه الصيحة المتحدية

* لو كان لى سكن بالراح يسعدنى لما انتظرت بشهر الصوم إفطارا
الراح شىء عجيب أنت شاربه فاشرب ! وإن حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على صهباء صافية صر فى الجنان ودعنى أسكن النارا !
وفكر حين تقرأ هذه الأبيات الثائرة فى تعلق الأم بولدها المذنب الذى يذمه الناس أو يطارده القانون ولكنها تتحداهم جميعاً وتتحدى كل شىء ، تتحدى سلطان الأب وتتحدى سطوة القانون وتتحدى قواعد المجتمع ومراسيم الأخلاق وتتحدى أوامر الدين فى بعض الأحيان .

وقد يستطيع أن يكبح غضبه فيحوله إلى تهكم مر وسخرية لاذعة

وقائل هل تريد الحج؟ قلت له نعم - إذا فנית لذات بغداد !
 أما وقطر بل منها بحيث أرى فقنة الفرق من اكناف كلواذى
 فالصاحبة فالكرخ التي جمعت شذاذ بغداد ما هم لي بشذاذ
 فكيف بالحجلى مادمت منغمسا في بيت قوادة أو بيت نباد
 وهبك من قصف بغداد تخلصنى كيف التخلص لى من طين ناباذ

انظر أسلوبه البارع فى السخرية فى البيت الأول ، وكيف يمتزج
 فى القصيدة تهمه البليغ بالأدب الرفيع فى اعتذاره . يسلم بأثمه ويعترف
 على نفسه بجريرته إلى أقصى حد من الاعتراف تشاؤه ، ولكنه يقول
 لك بابتسامة آسفة : ولكن ماذا أفعل ؟ أرشدنى كيف أطيق البعد
 عن هذا النوع من الحياة وأنا قد شغفت به إلى الحد الذى تراه والذى
 لا أستطيع منه خلاصاً ؟ أفتنى بالله عليك ! فإنى مستعد لقبول
 نصيحتك إن استكشفت لى مخلصاً . ثم تصور أبا مفتونا بولده العاق
 السىء الأدب الفاسد السيرة يجرىء له جيرانه يذهبونه إلى شروره
 ويحضونه على طرده .

بل بهبه استطاع أن يطلق الحجر لفترة ، كما فعل فى آونات متقطعات
 من حياته ، فهل يستطيع المداومة على هذا الهجران ؟ مستحيل ! هو
 أعرف بنفسه وهو أصرح من أن يخادعها ويخادع غيره بالأمانى
 المستحيلة ، وهو يعرف فى قرارة نفسه أنه سيخضع اليها فى أول فرصة
 تعن له . فإن قاوم إغراءها فى الفرصة الأولى فلن يستطيع له دفعاً
 فى الفرصة التالية ، كما حدث له حين عاد من حجه بيت الله الحرام

قالوا تنسك بعد الحج ! قلت لهم أرجو الإله واخشى طيزنا إذا
أخشى قضيب كرم أن ينازعني فضل الخطام وإن أغذت أعذاذا
ما أبعد النسك ، من قلب تقسمه قطربل فقري بني فكلوا ذى
فإن سلمت - وما قلبي على ثقة من السلامة - لم أسلم ببغذاذا

تجد في هذه القطعة وفي سابقها شعورا جديدا ، شديد التأثير
في النفس ، هو شعور الهزيمة والتسليم واليأس . فأبو نواس قد حاول
مرارا أن يقتلع هذا الحب الطاغى من قلبه ، إذ لم يجده سرورا كله بل
لقى فيه صنوف الألم والشقاء ، ولكنه لم يستطع . فكان يعود إلى الخمر
مهزوما مدعنا

والراح أهواها وإن رزأت بلغ المعاش وقللت فضلى
هو رجل قصارى القول فى مبلغ تعلقه بالخمر وارتباط حياته بها
أن أفضع عقاب يتصوره لنفسه هو أن يحرمها
قالت كذبت على طيفي فقلت لها إذا فعاديت يا مكسئون خمارا
ولا نقلت إلى حانوته قدما ولا نبذت إليه النقد فاختارا

عاطفة الاجلال * * * *

حب عظيم يملك شغاف قلبه فلا يستطيع منه فكاكا ، حب يعلو
على صفات المحبوب حسننها وقبيحها فيحب المحبوب لشخصيته من
حيث هي ويربط ذاته بذاته ربطاً وثيقاً حيويّاً ، حب يقوده إلى
الغضب والصياح والتحدى أو إلى السخرية والتهكم حين يواجه اللاتمين

والعدل أو تجبهه تقاليد المجتمع أو أوامر الخلق والدين ، حب شديد
الجوى واللوعة لا يخلو من الألم والشقاء ، حب قد يحاول هو الخلاص
منه ولكنه لا يطيق منه خلاصاً فهو يعود إليه مهزوماً مذعناً . هذا
مبلغ حبه للخمر ، فما سر هذا الحب العجيب ؟

هذا سؤال سنقضى كتابنا كله في الإجابة عليه واستكشاف سبب
له بعد سبب ، ولكننا الآن نلتفت إلى خاتمة أخرى من خواص
هذا الحب ، وهى شعور الاجلال .

فاحدنا قد يحب شخصاً ما حباً جماً ، ولكنه يستسخره بعض
الشيء ، أو يستهين به ، بل ربما يحتقره ، ولكن حب أبى نواس للخمر
كان حب الاكبار ، فهو يعدها شيئاً نفيساً ، شيئاً جليلاً مبجلاً عزيزاً ،
يجد فيه صفة « العظمة » . بل يعدها أتمن شيء فى الوجود ، تعلو قيمتها
على كل نفيس من المتاع ، حتى يستخر من يعتقد أنه يدفع ثمنها غالياً
إذا اشتراها برطل من الذهب .

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل يأخذ منها ملأه ذهباً
قصرت بالراح ! فاحذر أن تسمعها فيحلف الكرم ألا يحمل العنبا
ويبذل هو فيها كل ما يملك من مال إلى أن يفلس دون أن يستكثر هذا عليها
إلى بيت حان لا تهر كلابه على ولا ينكرن طول ثوائى
فارمته حتى أتى دون ماحوت يمينى حتى ريطقى وخذائى
وكيف يستكثر عليها شيئاً وهى أعز على قلبه من كل أموال الدنيا

تعشقها قلبي فبخض عشقها إلى من الأموال كل نفيس
هي أعلى من كل ما تدفعه ثمنها لها ، فمشتريها راجح مهما يبذل في شرائها
فما برج القوم حتى اشتروا ومن يشتري الخمر لم يخسر
ولذلك يعطى الخمار كل ما يطلب دون مساومة

أعاذل ما فرطت في جنب لذة ولا قلت للخمار كيف تبيع
أسامحه أن المكاس ضراعة ويرحل عرضي عنه وهو جميع
على أن مبلغ إعزازه لها وإكباره لشأنها يتجلى في أوضح صورته
في سخطه على الذين يشربونها وهم ليسوا لها بأكفاء ، فهو ينظر
فيجد الكثيرين ممن يتمكنون من شرائها والظفر بها من السوق
الأراذل ، الذين يدنسون شرفها بتناولهم إياها ، فيحزنه هذا ويغيظه
ويود لو استطاع أن يسن قانونا يحرم شربها على كل وضع وسفيه ،
فهو يعدها شيئا عظيما يجب ألا يسمح بالاقتراب منه لكل من هب
ودب ، يعدها شيئا « شريفا » ينبغي أن يسان شرفه عن أن تلوثه
أبدى الدهماء ، ويقصر حق تناوله على الأفاضل من الناس ذوى العقل
العزير والوقار الكامل والمنزلة المرموقة

ووقر المكاس عن سفيه فإن حقا لها الوقار

أليست نفسا طيبا طاهر آيحب أن يسان عن كل نجس ؟

نفس المدامة أطيب الأنفاس أهلا بمن يحميه عن أنجاس
لا جرم نشعر بحزنه وسخطه في هذا البيت

والخمر قد يشربها معشر ليسوا إذا عدوا بأكفائها
ثم تمادى به هذا الشعور حتى أراد أن يحرمها على أجناس من
الناس لم يكن يعينهم في الحقيقة ولكنه اندفاعه العاطفي فقال على لسانها
لا تمكنني من العرييد يشربني ولا اللئيم الذي إن شمني قطبا
ولا المجوس فإن النار ربهمو ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا
ولا السفال الذي لا يستفيق ولا غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا الأراذل إلا من يوقرنى من السقا، ولكن اسقني العربا !
ثم يصيح في فرط وجده بها

يا قهوة حرمت إلا على رجل أثرى فأهلك فيها المال والنشبا
وقد بذل هو كل جهده في حياته ألا يشربها إلا مع الفتية الأجناد
من ذوى الحسب الرفيع والأدب الجم واصطحب القوم السراة كأنهم
نجوم تراءت من مطالعها الزهر

فرب صحابة بيض كرام بهليل غطارقة صباح

في فتية كالسيوف هزهمو شرح شباب وزانهم أدب

وفتية كمصابيح الدجى غرر شم الأنوف من الصيد المصاليات

يا مجلسا ضم فتيانا غطارفة حازوا البشاشة والأنعام والكرما
وجوههم فيه ربحان لمجلسهم ولفظهم لؤلؤ في سلكه نظما
فالخر في نظره لا يقدرها حق قدرها إلا من أوتوا نصيبا عاليا
من التهذيب واللفظ ودماثة الخلق ، وشاربوها يجب أن يلزموا في
مجلسها أطيب الشمائل

الخر طيبة وليس تماما إلا بطيب خلائق الجلاس
وبهذا يصف ندماه :

ندامى طول الدهر خرس عن الخنا وعمى عن العوراء نزه عن الكبر
ويصف مجلسه :

هناك لا تتخطى الأذن لائمة ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا
ويريد أن يكون مجلس الشرب تام التهذيب مستوفى الأدب منزلها
عن الهجر ، يريده مجلس سلام ومحبة لا يكدره تخاصم أو سباب
لمثل من الفتيان حلت أخى الخمر وطابت له اللذات واسترخى السكر
إذا كان شربى لا يكدر مجلسى ولا يعتري فيه خصام ولا هجر

إذا ما كنت شاربها فشربا على غير الخلاف أو التلاحى

وهذه الأبيات التى تنسب إليه تجمع شروط المجلس الكريم
حقوق الكأس والندمان خمس فأولها التزين بالوقار
وثانيها مسامحة الندامى وكم حمت السباحة من ذمار
وثالثها وإن كنت ابن خير ال برية محتدا ترك الفخار

ورابعها فللندمان حق سوى حق القرابة والجوار
إذا حدثته فاكس الحدث الـ ذى حدثته ثوب اختصار
وخامسها يدل به أخوه على كرم الطبيعة والتجار
كلام الليل ينسأه نهارا فان الذنب فيه للعقار
فان حكمت كأسك فيه فاحكم له بإقالة عند العشار

وهي أبيات قد نشك في صحة نسبتها إليه ، لمجافاة أسلوبها لأسلوبه
ولكنها لاشك تعبر عن نظير آرائه . على أن أروع ما قال في هذا
المجال ربما يكون قوله

أجل عن اللئام الراح حتى كأن الراح تعصر من عظامي
واسقيها من الفتیان مثلي فتختال الكريمة في الكرام

هذه الدعوى من أبي نواس تستحق أن نتوقف أمامها مليا حتى
نحسن فهمها ، فلا شك أنها تبدو غريبة لمعظم القراء من المسلمين ،
كيف يدعى للخمر الشرف والكرامة ؟ كيف يقرن بينها وبين الوقار
والآداب وطيب الخلائق ؟ معظمنا لا يرون في الخمر وقارا ولا أدبا ولا
يدركون لها جلالا ولا شرفا ، بل هي مقترنة في أذهاننا بأضداد هذه
المعاني تماما ، مقترنة بسقوط الشرف وضياع المهابة ، وشاربوها في
نظرنا أراذل سفهاء . وشربها لا يمكن أن يقود إلا إلى ما يحذر أبو
نواس منه من العربة والتسفل . فليتأمل القارئ في هذا الرذائل
الإحدى عشرة التي ينفها أبو نواس عن نداماه ، أليست هي عين

ما نسبته إلى الخمر وشاربيها؟ وهذه هي: سفاهة، نجس، عريضة،
لؤم، سفالة، غرارة، رذالة، خنا، عوراء، خصام، هجر.

هذا رأى معظمنا، ولكن من واجبتنا أن نستمع إلى رأى الفريق
الآخر بعناية أن أردنا أن نفهم شعر أئى نواس، فالدراسة التاريخية
ترينا أن رأى أئى نواس فى شرف الخمر وفضلها قد اعتنقه الكثيرون
من المثقفين، وأن شرب الخمر يقترب فعلا عندهم بما يدعيه من التهذيب
والآداب، فهم ينكرون أن جميع من شربوها كانوا من السفهاء
والأراذل، الذين يقودهم السكر إلى العريضة والهجر، ويقررون أن
من شاربيها من كانوا أناسا أفاضل، بل منهم عدة من أرقى الأفراد
وأعظمهم تهذبا وأسماءهم خلقا. ثم لا يكتفون بهذا فيدعون أن هناك
صلة لازمة بين شرب الخمر وبين كمال الذوق وتمام التهذيب، فالرجل
لا يتم ارتقاء ذوقه ولطف سجاياه إلا إذا كان ممن يقدرون الخمر،
كما يدعى شاعرنا العربى بالضبط.

ماذا يحس أحدنا حين يستكشف أن فلانا يشرب الخمر؟ يحس
نحو هذا الشخص بالاستهانة والاستزدال، ويسقط للتوفى عينه.
وأحدنا حين يرحل إلى بلد أوروبى ويعيش بين أهله زمنا يكون من
أعظم ما يثير دهشته واستخزاه أن يتعرف إلى نفر من أفاضل
الرجال ذوى الرجاحة والتهذيب فيجدهم من الشريرين. ومن بينهم
الأساتذة الاجلاء فى الجامعات والقساوسة الفضلاء فى الكنائس،
ولا يجدهم يخفون هذه العادة كما يفعل عندنا من يتبلى بها، بل على العكس

تماما يفخرون بها ، ويعتبرونها من علامات رقيهم ، ويتباهون بمعرفتهم بالخمر الجيدة وتمييزهم لطعومها وخبرتهم بأنواعها وسنى اعتصارها ، ويعتزون بهذا كله اعتزازا عجيبا .

فالحقيقة التي قد تحيرنا هي أن الخمر مقرونة عند الكثيرين من غير المسلمين بالذوق المثقف والحس المهذب والعقل المتحضر . ليس معنى هذا أنهم ينكرون أن كثيرين ممن يشربونها من السوقة الساقطين ولا أنهم ينكرون أنها إذا لم تشرب بحكمة وتعقل قادت إلى السفه والعريضة ، ولا أنهم ينكرون أنها قد عرفت لدى الجماعات الوحشية والأمم الهمجية ، ولكنهم يدعون أن هذا كله لا يسيء إليها ولا يمس شرفها . كما أن الدين لا ينتقص منه أن الكثيرين ممن يعتنقونه من الأوغاد الأنجاس ، أو أن الكثيرين يسيئون استخدامه ويفسدون أغراضه الطاهرة . فيقولون أن من يشربها بحكمة واعتدال وحسن تمييز فقد اكتسب ذوقا رفيعا .

والآداب الغربية - والشرقية أيضاً - مليئة بما قيل في اجلال الخمر وتمجيدها ، من أشعار وقصص ومقالات ، وفيها مئات الكتب التي وضعت عن الخمر خاصة ، تتحدث عن فضلها وشرفها ، وتعدد أسماء العظام من الأفراد الذين قدروها ومجدها .

يقول أحدهم (١) : أن من يمتنع عن شرب الخمر لأنه يخشى أن يصير

سكيرا يدل بهذا على ضعف ارادته وسوء ظنه بنفسه وعدم قدرته على ضبط نزعاته ، ولولا هذا الضعف لما طلق الخمر والخمر افخر ثمرة من ثمرات اتصال الانسان بالطبيعة . ثم يقول : انك تجد الممتنعين عن شرب الخمر يكثر من عادة بين الرجال الشرسي الطباع الشديدي النزق السريعي الغضب والمشاكسة من رجال السياسة ورجال الحرب وغيرهم ممن يسببون للإنسانية أشد البلاء وأقسى العداوات والمحن ، بينما تجد بين شاربها أمثال شكسبير ورمبراندت وبيتهوفن وبلزاك ، يعنى عظام الشعراء والفنانين والموسيقيين والقصصيين .

واليك ماقاله احد كبار المثقفين المعاصرين ، وهو المفكر المشهور الأستاذ جود . استاذ الفلسفة بجامعة لندن ، فى مقالة له (١) . فهو يعتبر تذوق الخمر من دلائل التحضر ، ويدعى ان من علامات انحلال الحضارة فقدان الذوق الخمرى ، وان هذا الذوق فى اعلى صورته من الأذواق الجمالية مثل تذوق الشعر او الموسيقى او غيرهما من الفنون الجميلة .

بل هو يسمى مقالته « كيف تنحل حضارة » ، ويبدوها بأن يسأل : « ماذا نعنى حين نقول ان حضارة ما قد اخذت تنحل ؟ ما المقاييس التى نحكمها فنحكم بأن هذا الانحلال قد بدأ ، وما العلامات التى نراها فنذكر انك انه قد أخذ يتطرق ؟ » .

ثم يقول انه قد رأى علامة دلته على بدأ انحلال الحضارة في بريطانيا حين زار اكسفورد من زمن قريب فوجد شباب الجامعة قد حرموا استطابة الخمر الجديدة ، ثم يشرح ما يعنى فيقول :

«ان تذوق الخمر أحد الأذواق الجمالية . فهو ينتمى إلى نفس الأسرة التى ينتمى إليها تذوق الكتب ، وتذوق الرسوم الفنية ، وتذوق الموسيقى ، وإن لم يكن فى غنى هذه الأذواق . فتذوق الخمر ذوق متحضر . هو يعطى لذة ، ولكن اللذة ليست إلا عنصراً واحداً - وليست هى أهم العناصر - فى التجربة المعقدة التى يستمتع بها الذهن عن طريق تذوق الخمر الجيدة . فبالإضافة الى اللذة التى يحصل عليها الشارب ، يتحصل أيضاً على إدراك قوى لشيء نفيس جميل ، وهذا الإدراك يستدعى إرهاف الحساسية واغناء الوجدان . وليس فى هذا غرابة ، فليس هناك من سبب - أو لا أعرف أنا سبباً - يحد تذوقنا لجمال الأشياء المادية فى حدود الاحساسات التى تصلنا عن طريق السمع والبصر (يعنى أن حاسة الذوق يمكن أن تكون هى أيضاً قناة للإحساس الجمالى) . ولكن هذا الأثر الشامل المعقد للخمر الجيدة لا يتم إلا بهذيب حساسية الحلق ، فتذوق الخمر لا ينتج عن مجرد الصدفة أو محض الموهبة الطبيعية ، كما أن تذوق الموسيقى أو الفن لا ينتج عن مجرد صدفة أو محض موهبة ، بل يستلزم تمريناً طويلاً شاقاً لتنميته ، وكلما نما هذا الذوق ازداد صاحبه كراهية للخمر الرديئة واشمئزازاً منها وتأذياً من طعمها ، وهو يتطلب أيضاً حلقاً نظيفاً ،

ويتطلب معرفة بالأطعمة التي يصح أكلها قبل شرب الخمر وفي أثناء شربها ، ويتطلب فوق كل شيء تعودا دائما متصلا بكافة أنواع الخمر وخاصة الجيد منها . ولهذا الأسباب ينذر أن يستطيع المرء تنمية ذوقه الخمرى قبل بلوغه أوسط عمره .

ثم شرح رأيه هذا للطلبة وقال لهم : « من هذا ترون انه من شبه المستحيل ان تستطيعوا بعد في حياتكم اكتساب هذا الذوق ، لأن الخمر الجيدة نادرة الوجود في الآونة الحاضرة الى حد يجعل الحصول عليها شبه مستحيل ، والسبب هو هذه الحرب الأخيرة التي عطلت صنع الخمر الجيدة سنوات طويلات ، صحيح ان الخمر الجيدة قد توفر مرة أخرى بعد اثنتى عشرة سنة من يومنا هذا ، ولكن في خلال هذه الفترة تكونون قد ضاعت عليكم الفرصة لاكتساب ذوق الخمر . فضياع هذا الذوق ، الذوق الخمرى ، من علامات الانحلال الذى طرأ على حضارتنا .

هذا رأى الأستاذ جود وأصحابه ممن يشرفون الخمر ، ولا يعيننا الآن ان نرد عليهم ، ولكن من واجبنا ان نحسن فهم حججهم ، لأنها تعيننا على فهم ما قاله شاعرنا ، فهذه هي وجهة نظره ، ويخيل إلينا أنه لو اطلع على مقالة الأستاذ جود لوافقه على كل كلمة فيها ، ولقال أن هذا عين ما أراد أن يشرحه في شعره الكثير ، وخصوصا جملته عن أن اللذة ليست كل شيء وليست أهم شيء ، وإنما المهم تجربة الادراك الجمالى لشئ نفيس جميل . وهذا سر وصفه نداه بالآدب والتهديب

وبالاعتزان والوقار ووصفه لمجالس شربه بمجانبة السفاهة والعربدة .
ولكن لعل القارئ قد اتضح له أن الخمر التي يعنيها هؤلاء ويعبدونها
شيئاً نفيساً رفيعاً مهذباً ليست « البوظة » أو « المريسة » ، ليست
الويسكي أو الكونياك السوقى ، أو غير هذه من الخمور الغليظة الجافية
أو الأشربة الرخيصة الرديئة التي تصل إليها أيدي معظم شاربيها ، بل
هى الأنواع الفاخرة الغالية الرقيقة التي يحتفل بصنعها وتعتيقها وتحفظ
سنوها وانسابها .

ولكن شعور أبى نواس نحو الخمر لم يقتصر على أنه احبها وأجلها
وعدها شيئاً نفيساً شريفاً ، بل قد وصل شعوره نحوها إلى درجة
التقديس ، أبو نواس قد عبد الخمر وعدها إلهاً . وقد كان استاذنا
الدكتور طه حسين أول من انتبه إلى هذه الحقيقة العجيبة حين
توقف فى حديث الأربعاء امام بيته

أثن على الخمر بآلائها وسمها أحسن أسمائها

ونبه إلى ما فيه من تسبيح بالخمر وتقديس لها . ونحن نريد أن
نزيد هذه الحقيقة الهامة تأملاً ونستكشف الدوافع النفسية الباطنة
التي دفعت أبى نواس إلى هذا الموقف .

وأول ما نحب أن ننبه القارئ إليه هو أننا حين نقول أن
أبى نواس عبد الخمر فلسنا نستعمل أسلوباً مجازياً ، لسنا نستعمل

ضرباً من المبالغة نريد به ان نؤكد انه أحبها حباً شديداً أو أجلاً
إجلالاً عظيماً . لسنا نستعمل لفظ « العبادة » بالاستعمال الواسع المائع
غير المضبوط الذي يستعمله العاشق حين يقول لمحبوبته « أعبدك »
أو تستعمله الجرائد السيارة حين تقول ان فلانا المغنى معبود الشعب
أو فلانة الممثلة معبودة الجماهير ، ولا تعنى إلا ان الناس يحبونها حباً
كبيراً . وإنما نعنى « العبادة » بمعناها الضيق المحدود ، بمعناها الدينى ،
فنقرر ان الخمر اثارت فى نفس أبى نواس إحساسات الرهبة والخشوع
ونزعات التقرب والتقديس ، التى تصدر عن المتدين نحو إلهه
الذى يعبده .

وهذا ايضا ادعاء غريب ، بل لعله يزيد عن الماضى غرابة .
ولعله يثير التعجب والاستنكار فى كثير من القراء وخصوصا المسلمين
منهم . فالخمر فى الإسلام ابعد شئ عن الدين وعن الاحساسات
والعواطف التى يبتغىها الدين فى النفس البشرية . فهى محرمة ، بل هى
إحدى الكبائر ، بل يعدها الكثيرون ام الخبائث جميعا . هى نجس
وإثم عظيم ورجس من عمل الشيطان ، فكيف يمكن ان تثير فى بعض
الناس شعور الرهبة الدينية حتى يقدسوها ويسبحوا بحمدها ؟

ولكن هذا الذى نتعجب منه ونسكره حادث فعلا ، ليس عند
أبى نواس وحده ، بل فى الكثير من الأجناس والجماعات البشرية
همجياً ومتحضرها ، ولدى الكثير جدا من الديانات البدائية ثم بعض

الديانات السماوية ، بل نزيد فنقرر ان نظرة الإسلام إلى الخمر تكاد تكون نظرة فريدة ، وانها في اذهان معظم البشر في مختلف العصور ومتباين الثقافات مقترنة اقترانا شديدا ، واقترانا مباشرا في بعض الأحيان ، بالتعبد الديني . وهي حقيقة تاريخية لا بد ان نحسن فهمها كما نستطيع ان نفهم شعور ابى نواس نحو الخمر .

ومن الطريف أن أبا نواس نفسه لم يكن يعرف هذا ، فهو يقول لو عبد الخمر قبلنا أحد ممن مضى قبلنا عبدناها فكم كانت سعادته تكون لو عرف أن أقواما كثيرين قد عبدوا الخمر فعلا !

* اعتقدت أمم كثيرة من البشر أن نشوة الخمر من صنف النشوة الدينية ، ثم زادت فزعمت أنها جزء منها ، فلم تكفد تخلو طقوس العبادة لديها من شرب الخمر كأحد المراسيم الدينية الواجبة .

ثم زادت بعضها على هذا فجعلت شرب الخمر شعيرة دينية قائمة بذاتها ، تتخذ لها طقوس خاصة تقرر ما ينبغى فعله وما لا ينبغى في أثناء الشرب .

وعدت أديان كثيرة الخمر شرابا الهيا ، واعتبرتها روح الحياة ، أو عدتها نفس الاله ونفحته ، وقالت أن بها القدرة على رد الميت إلى الحياة .

وفي بعض الديانات كان الآلهة في أصلهم غير خالدين ، ثم شربوا

الخمير فاكثسبوا الخلود ، نجد هذا فى آلهة الهند المذكورين فى كتب
الفيدا المقدسة ، كما نجده فى آلهة الإغريق الذين ذكرهم هومير .

وفى الكثير من اللغات تسمى الخمير « روحا » . أو تسمى « دم
الكرم » ، أو « روح الكرم » ، أو « حياة الكرم » . ونلاحظ فى هذا
المجال أن اسمها العربى « الراح » ينبع من نفس المصدر الذى ينبع منه
لفظ « الروح » ، ثم تأمل فى اصطلاحنا « مشروبات روحية » نترجم
به التعبير الأوربى spirits أو spiritous drinks

وقد اتخذت أديان كثيرة آلهة مخصوصة للخمر ، نذكر منها
ديونيسوس إله الكرم لدى الرومان ، ولم يكن شرب الخمر فى شعائر
هذا الإله للتلذذ أو العريضة ، بل كان طقسا دينيا وقورا .

وفى الديانة البراهمانية القديمة كانت تستعمل الخمور فى شعائر
العبادة ، وكان العرقى يقرب إلى الآلهة . وقد بقى الشراب الدينى جزءا
أساسيا من العبادة بين أتباع زردشت ، فمعظم طقوس البرسيين فى
يومنا هذا يكون شرب الخمر طقسا لازما بينها ، ويعد الشرب عملا
دينيا بنوع خاص فى عيد رأس السنة .

وفى بعض الأديان لا يجوز للكاهن أن يقوم ببعض الطقوس
الدينية إلا إذا سكر !

وبعض الأمم لا تحلل شرب الخمر فى كل موسم جديد إلا بعد
أن تقدم الثمار الأولى للكرم قربانا إلى الآلهة ، فكان الرومان مثلا

يضحون بالعصارة الأولى من الخمر الجديدة للإله ليبر ، ولا يجوز لأحد أن يشرب من الخمر الجديدة إلا بعد أن تؤدي هذه الشعيرة .

وبعض الجماعات تتطلب من الكهنة أن يمروا ببيوت الناس ويفتحوا دنان الخمر ويتذوقوا منها جرعة ، ثم للناس بعد ذلك أن يشربوا من الدنان . وكانت الخمر لا تشرب إلا إذا تليت عليها صلوات خاصة لتقديسها .

وقد اختص الكهنة في الكثير من الأمم بصنع الخمر ، وكثر هذا في الأديرة المسيحية في القرون الوسطى ، حتى أن هناك أصنافا « مسجلة » من الخمر لا يصنعها إلا رهبان مذهب ديني معين ، مثل خمر « بندكتين » التي يختص بصنعها رهبان القديس بندكت . وفي الحبشة يصنع النجاشي الخمر الجديدة في أحد الاحتفالات في شهر يناير .

والشعائر التي يجب أن تراعى لدى صنع الخمر أو شربها كثيرة متنوعة . ففي بعض الديانات يجب أن يستحم صانعو الخمر ويلبسوا ثيابا جديدة تامة الجودة ؛ وطريقة تناول القدح ، وعدد الأقداح التي تشرب ، وغير هذامن الأعمال محدد تحديدا دقيقا .

بل بلغ الأمر ببعض الديانات أن قصرت شرب الخمر على الطقوس الدينية ، أما شربها في غيرها فحرام !

هذا عن الشعائر الدينية المحض ، أما في المناسبات الاجتماعية

واقف الامر في القرى - ٢٤ - الحسم بركة الخمر

فأكثر الأجناس والشعوب البشرية تستوجب شرب الخمر في معظم المناسبات الهامة . مثل الاحتفال بالختان ، والاحتفال بنزوح الفتى أو الفتاة ودخولها سن الرشد ، والاحتفال بالزواج . وفي حفلات الزواج بنوع خاص يكاد يكون شرب الخمر عاما بين الجماعات البشرية . وفي بعضها يقتصر الشرب على العروسين ، وفي بعضها يشرب آباؤهما معهما ، وفي أخرى يشارك الأقارب أو يشترك جميع أفراد القبيلة . وكذلك في جنازة الميت ، يقضون عددا معينا من الأيام يشربون . وبعضهم يصب الخمر على القبر أو يصنع في القبر ثقبوا ويملؤها بالخمر .

ويكون شرب الخمر جزءا من المبيعات والاتفاقات والمحالقات وحين يقبل فرد غريب كأحد أبناء القبلة ، وفي المؤاخاة الصناعية أى حين يتفق رجلان على أن يصيرا كأخوين ، ولدى الاقدام على سفر أو على أية مغامرة هامة ، وفي احتفال الجماعات الزراعية بحصاد المحصولات .

وقد ضربنا معظم الأمثلة الماضية من الديانات غير السماوية ، وهي التي يعتنقها أغلب أفراد البشرية . أما عن الديانات السماوية الأصل ففي المسيحية يكون شرب الخمر جزءا أساسيا من العشاء الرباني ، أو القربان المقدس ، وهو أهم طقوس المسيحية كلها جميعا وأعلىها شأنًا وأعمقها في نظر المسيحيين مغزى ، فهو منها واسطة العقد ، فالخمر

تمثل دم المسيح ، وشربها يكسب الخلود والخلص لأنه ادخال لدم
الإله في الجسم البشرى فهو لهذا شرب مقدس .
وكان المسيحيون الأوائل يسرفون في الشرب في هذا الاحتفال
حتى احتاج قادتهم - ومنهم القديس بولص - إلى أن يحذروهم من هذا
الإسراف . وكان المسيحيون الأوائل يضعون الخمر مع الميث في
قبره ، ويضعون في القبر أقداحا للشرب تحمل دعوات للميث ، مثل
« اشرب وعش طويلا » .

وفي الأمم المسيحية إلى يومنا هذا لا يكون الشرب جزءاً من
طقس الزواج نفسه ، ولكنه يكون جزءاً من طقس العشاء الرباني
الذي يجب أن يتناوله العروسان بعد طقس الزواج مباشرة أو بعده
بفترة قصيرة .

أما لدى العبرانيين فإن « كأس البركة » يوازي خمر العشاء الرباني
لدى المسيحيين .

هذا طرف يسير من الأمثلة التي لا تعد لها والتي يستطيع القارئ
أن يزداد منها إذا قرأ مادة « الخمر » أو مادة « الشراب » في أحد
معاجم الأديان أو إحدى دوائر المعارف المشهورة (١) .

(١) أخذنا هذه الأمثلة القليلة من مئات الشواهد التي تعطيها مادة « شراب »
في دائرة معارف الدين والأخلاق. edit. Encyc. of Religion and Ethics. James Hastings. Edinburgh سنة ١٩٠٨ - ١٩٢٦ ويرجع إليها القارئ
أن أحب أن يعرف تفصيل ما أجمناه أو أن يعرف الأسماء المضبوطة للأديان
والجماعات التي اكتفينا بالإشارة إليها حين نقول « بعض الأديان » أو « كثير من
الجماعات » . ونحن مدينون إلى زميلنا الأستاذ عبد المجيد عابدين باعارتنا هذا المرجع
الهام .

ولكن لعل ما سقناه يكفي لإقناع القارئ بما زعمناه من أن موقف الإسلام يكاد يكون موقفاً فريداً ، فالإسلام هو الذي يعد الخمر رجساً من عمل الشيطان ، أما في معظم الأديان الأخرى ولدى أغلب أجناس البشرية في مختلف عصور التاريخ فهي مرتبطة إرتباطاً شديداً بالتعبد والشعور الديني حتى تعد في الكثير منها دم الإله أو روحه .

ولننظر أخيراً في طائفة من أهم الطوائف الإسلامية وأكثرها عدداً ، وهي طائفة الصوفية ، لتذكر كيف تتخذ الخمر وشربها ونشوتها وغيبوبتها رموزاً للاتصال الإلهي والنشوة الدينية . صحيح أن خمر المتصوفة خمر رمزية صرف ، ولكن اختيارهم لهذا الرمز دون غيره له أهميته ، فهو يشرح مرة أخرى اقتراب النشوة الخمرية من النشوة الدينية في أذهان الكثيرين .

كل هذا التأمل يعيننا معونة كبيرة على فهم موقف أبي نواس من الخمر ، ويجلي لنا فكرة هامة ، وهي أن شعوره الديني نحوها على غرابته ليس إلا ارتداداً منه إلى الاحساس البشري البدائي والاستجابة الغريزية نحو هذا الشراب العجيب .

فالعلماء يرجعون تقديس الخمر إلى البداية الأولى للتفكير البشري ، ويقررون (١) أن الإنسان البدائي يبدأ في تأليه الخمر في

(١) نفس المرجع .

نفس المرحلة التي يبدأ فيها بالشعور بأن في جسمه هو روحا تحركه
وتحييه . وسبب ذلك تأمله فيما تحدثه فيه الخمر من تغير جسماني ،
وتغير عقلي .

تأثير الخمر على الجسم والعقل

فأما التغير الجسماني فهو أن الخمر تدب في عروقه ديبا غريبا
يحس به ويستطيع تتبعه ، وتدفعه وتكسب وجناته احرارا وأطرافه
سخونة ، وتفيض في أعضائه نشاطا وانتعاشا وحيوية زائدة ، فكانها
تعطيه حياة جديدة تضاف إلى قوته الحيوية . وأما التغير العقلي فهو
أنها تكسب عقله كذلك نشاطا وسورة ، وتستفز منه إحساسات
غريبة فيها عنف وحدة واستعلاء . يشعر بالزهو والكبر والخيلاء
ويزول خوفه وجبنه وتردده إن كان في عاداته من المتهيئين المحجمين
فيجد في نفسه شجاعة وجرأة وإقداما ، وتكسبه تفاؤلا واستبشارا
وتسكن احزانه وهمومه . لا غرو أن يعتقد أن بالخمر روحا أو هي
نفسها روح حية حيية .

ولكن تأمله في تأثيرها لا يلبث أن يكسبه خوفا منها ورهبة
أمامها ، فهي الشيء الوحيد الذي يستحوز على عقله ويتسلط على
روحه هذا التسلط التام الذي ينتهي بأن يصصره صرعا كاملا . ومن
هنا يبدأ في إعطائها صفات القوى الطبيعية الجبارة والأرواح الغلابة
المسيطرة التي يعدها في دياناته البدائية آلهة .

والمأمل في شعر أبي نواس يستكشف ان ما يصف العلماء حدوثه

للذهن البشري البدائي هو عين ما حدث له . فأبونا واس قد «أحياء» الخمر ،
أى عدها كائنا حيا ، ثم خلص من هذا إلى اعتبارها سر الحياة ، وانتهى
من هذه العقيدة إلى الاعتقاد بأنها «روح» .

والشعراء من قبله قد وصفوا ديب الخمر ووصفوا تأثيرها في
الجسم والعقل ، ولكن ليس منهم من انتهى من ذلك إلى إحيائها هي
كما فعل ، والذي يبدو لنا أنه حين أمسك بكأسها في يده وتأمل فيها
خيل إلى ذهنه الحاد المضطرب أنها بالفعل كائن حي ، لا بمحض التشبيه
او المجاز . فكل ما شهدته منها أقنعه بذلك ، بريقها الخاطف الوهاج ،
وقرقتها في دنيا أو في ابريقها ، وفورانها حين تصب في الكأس ،
واضطرابها وجيشانها حين تمزج بالماء ، ثم سريانها العجيب في أوصال
الجسد وتدفعتها للجسم وإنعاشها له ، وما تحدثه بالحس من سورة
واستفزاز ، وأخيرا سيطرتها على العقل وصرعها له .

فهى حين تصب في الكأس تشب و**ثب الكائن الحى** حين يأخذه
الطرب فيرقص

فأبدى لنا صهباء تم شبابها لها مرح في كأسها ووثوب
وإذا مزجت بالماء أثارها إثارة الذكر للأثى
إذا جرى الماء في كوامنها هيج منها كوامن الشغب
فاضطربت تحته تزاحمه ثم تناهت تفتر عن حجب
وحباها يتواثب تواثب الجراد او الجنادب او الدبى حين يهيجها

المطر او تنبعث من مروجها
ثم لما مزجوها وثبت وثب الجراد

تنزو جنادها في وجه شاربها مثل الدبى هاجته طش بقيعان

تنزوفوا قعها منها إذا مزجت نزو الجنادب من مرج وافياء
وصوت جيشانها في ابريقها أو في دنها يذكره بتزديد المزامير ، أو
بتمتمة الفأفاء ، أو بتلاوة القس لصلواته
كأن قرقرة الابريق بينهمو رجع المزامير او ترجيع فأفاء

كأن قراتها في الدن تحكى قراءة القس قابله الصليب
والشعراء من قبله وصفوا ضوء الخمر والوانها ، ولكنه وصف
إذا قورن بوصفه بدا جامدا خاييا ، اما ضوءها عنده فضوء ملىء
بالحركة ، دائم الاضطراب ، هي نار مصطنخة ولهب متأجج يتسور
ويتواثب ويحترق فتصدر عنه الحرارة والحيوية

كأنها ولسان الماء بقرعها نار تأجج في آجام قصباء
ونورها عنده ممتزج دائما بالنار ، فهو ليس مجرد لون بل هو حرارة
فلو مزجت بها نورا لمازجها حتى تولد أنوار وأضواء

قامت تريني وامر الليل مجتمع صبحا تولدين الماء والذهب

وخندريس لها شعاع يلمع في الكأس كالضرام

كأنها والمزاج يقرعها شهاب نار في الجو يحترق

حيرة كشعاع الشمس صافية يحيط بالكأس من لآلئها شعل
وبريقها في الكأس مثل تلالو الدر ، ولكنه أيضا تلالو وجه
الخبيب حين يبتسم ضاحكا فيشرق نوره ، فهو إذن في حقيقته
ابتسام وضحك

تفتت في أوجه الندمان ضاحكة كمثل دروهي من كف لال
أما دفؤها وحرارتها فيبالغ في وصفها حتى يدعى ان مجرد إمساك
كأسها يلهب الكف

تلهب الكف من تلهبها وتحسر العين ان تقصصها
ويكرر هذا الادعاء في القطعة البديعة التالية يصف فيها رجلا أضر
به البرد الشديد في الليل القارس فلما جاء مستنجدا بأبي نواس لم يوقد
له نارا بل اكتفى بمزج كأس من الخمر له فما أمسك بالكأس حتى
احمرت أنامله ولما يشربها ، فكيف به بعد أن يشربها ؟ يقص ذلك في
أبيات رائعة التنعيم قوية الطرب والنشوة

ومقرور مزجت له شمو لا بماء والدجى صعب الجناب
فلما ان رفعت يدي فلاح بوارق نورها بعد اضطراب
تزاحف ثم مد يديه يرجو دفيا حين جارت بالتهاب
فأبصر في أنامله احمرارا وليس له لظى حر الشهاب
فقلت له رويدك ان هذا سنا الصهباء من تحت النقب
فسلسها فسوف ترى سرورا فان الليل مستور الجناب

وراحتها العبقة التي تهب منها ليست مجرد «رائحة» بل هي «تنفس»
فتنفس في البيت إذ مزجت كتنفس الريحان في الانف

وتنفسها هذا نفس حي كنفحة الضحك من ثغر عبق
تنفس في وجوه القوم ضاحكة تنفس المسك في تفليج تفاح
وانظر الآن وصفه لتأثيرها في الجسم ، ثم تأثيرها في العقل ،
ومعظم «المعاني» التي يستعملها قد وجد أصولها لدى غيره من الشعراء ،
ولكنها في يده مجرد لبنات يبنى بها صورة تامة الجدة ، فميزته أنه
يشخص الخمر ويزعم لها التأثير العامد . لا يقول شربت الخمر فحدث
لي كذا ، ولكن ينسب إليها هي هذا الفعل كأنها قصدت هذا قصداً
ينبع عن إرادة ووعي وتعمد :
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها أجده حمرتها في العين واخذ

دبابة في عظام الرأس ساطعة لا تستكين لانسى ولا جان

دارت فأحيت غير مذمومة نفوس حراها وانضائها

اسقنى صرفا حميا تترك الشيخ صبيا
وتريه الغي رشدا وتريه الرشيد غيا

صرف إذا شجها المزاج بأيدي شاريها تولد الفرح
حتى تريك الحليم ذا طرب يهزه في مكانه المرح

إذا ذاقها من ذاقها حلقت به فليس له عقل يعد أريب

هذه هي المرحلة الأولى من تفكيره في الخمر ، وهي التي يعد فيها
الخمر كائنا له حياة وفيه مختلف صفات الاحياء ، وهو تفكير يتضح
وضوحا تاما في بيتيه هذين

اكسر بمائك حدة الصهباء فاذا رأيت خضوعها للماء
فاحبس يديك عن التي بقيت بها نفس تشا كل أنفوس الأحياء

دعنا الآن ننظر في المرحلة التالية ، وفيها ينتقل من اعتبار الخمر
كائنا حيا إلى اعتبارها سر الحياة ، أو اعتبارها روحا محيية ، وهي

الفكرة التي ستفضي به في النهاية إلى تقديسها وإعطائها صفات الإله ،
وبذلك يعيد في تفكيره الفردى خطوة الانتقال التي حدثت في أذهان
السذج في بداية التفكير البشرى .

فهي تضيف إلى روح شاربها روحا جديدة
قهوة تقرن في جسمك مع روحك روحا
وهي « روح الكرم » ، فإذا شربها أحيت جسده الذي خنقته
الهموم الثقيلة

يجي بروح الكرم لى جسد اخنت عليه نوازع الهمم
وتسميته إياها « روح الكرم » ، يذكرنا بما يقوله علماء الأديان
المقارنة عن تسميتها في الكثير من اللغات « روح الكرم » ، أو « حياة
الكرم » ، أو « دم الكرم » . وأبو نواس يسميها أيضا « روح الدن » ،
ويقول أنه حين يأخذها من الدن فانه يستل من الدن روحه ويستقى
دمه فيكتسب إلى الروح التي في جسمه روحا جديدة

مازلت استل روح الدن في لطف واستقى دمه من جوف مجروح
حتى انثنت ولى روحان في جسدى والدن منطرح جسما بلا روح
وتحمله هذه الفكرة على أن يتمنى لو استبدل بدمه دم الدن

قلت لدن نج اوداجه ليت دمي دونك مسفوح
وكنت منه بدلا صالحا في مهجتي تحي بك الروح
وهنا نرى مرة أخرى ميزته على من سبقه من الشعراء ، فالكثيرون
منهم شبهوا حمرة الخمر بحمرة دم الجوف ، ولكن الأمر عند

أبي نواس ليس مجرد تشبيهه ، فهي ليست حمراء كالدم ، بل هي دم ،
دم حار ساخن حتى ينبض ويسور .

وهي لا تحييه فحسب ، بل هي تكسبه « الخلود » ، أو النوع
الوحيد من الخلود الذي يستطيعه إنسان أمد الدهر

فنحن وان لم نسكن الخلد عاجلا فما خلدنا في الدهر إلا رحيقها
فإن عدها محييه مخلدة ، فما هي إلا خطوة قصيرة حتى يبدأ في نعتها
بنعوت الاله

جاءت كروح لم يقيم جوهر لطفها به أو يحصه نور
ومن هنا يعطيها صفة القدم ، ويترقى بهذا القدم درجات حتى
يوصلها إلى قدم الدهر

من قهوة زانها تقادما فهي عجوز تعلو على الحقب
دهرية قد مضت شبيبته واستنشقتها سوائف الحقب

رضعت والدهر ثديا وتلتته في الولاد

فهي كانت ولم يكن ما خلا الأرض والسماء
رأت الدهر ناشئا وكبيرا مـهرما
فهي روح مخلص فارق اللحم والدما

وقد سبقه الشعراء إلى وصف قدم الخمر وطول تعتيقها، ولكن
ليس منهم من بلغ هذه الغاية التي نراها في الأبيات الثلاثة الأخيرة،
وليس الأمر مجرد تنافس في إطالة مدة تعتيقها بينه وبينهم، يقولون
سنة فيقول عشرا، ويقولون مائة فيقول ألفا، ولكن المهم أنه
وصل في تفكيره في القدم إلى التجريد الفلسفي لكنه الزمان حتى
يتعدى بدايته الأولى إلى الوجود اللازمي الذي تنسبه الأديان إلى
الله وحده

تقديمها على

وهذا يبلغ مرحلته الأخيرة في تقديسها فينظم فيها أبياتا هي
عبادة خالصة.

تحيرت الأوهام دون صفاتها وجلت صفات عن شبيهه وعن ند

جلت عن الوصف حتى ما يظالبها وهم فتخلفها في الوصف أسماء
تقسمتها ظنون الفكر إذ خفيت كما تقسمت الأديان آراء

ومدامة سجد الملوك لذكرها جلّت عن التصريح بالأسماء
ثم هذا البيت الذي انتبه الدكتور طه حسين إلى مغزاه الحقيقي فكان
بداية رحلتنا الطويلة

اثن على الخمر بالآثام وسمها احسن اسمائها

قلنا أن أبا نواس يتدرج في « تفكيره » في الخمر حتى يصل إلى
تقديسها وعبادتها ، ولكن « التفكير » لم يكن طريقه الوحيد إلى
العبادة ، بل لم يكن طريقه الأعظم ، فليس أبو نواس في جوهر
تكوينه مفكرا ولا فيلسوفا ، إنما هو فنان ، فوصوله الأغلب إلى
تقديس الخمر جاء عن طريق الانفعال الفني ، وهذا ما نريد الآن أن
نشرحه .

يعتقد العلماء أن من الأسباب التي حملت البشر البدائيين على أن
يقرنوا بين الخمر والعاطفة الدينية ، تشابه النشوتين في مظهريهما ،
نشوة الخمر ونشوة الدين ، فاعتقدوا أنهما صنوان ، ثم اعتقدوا أنهما
شيء واحد .

وليس فيما يقوله العلماء غرابة ، فحتى أن خالفنا البشر البدائيين
وميزنا بين نشوة السكر ونشوة التدين تميزا جوهريا ، وهو ما سندهى
إليه في ختام كتابنا ، فلا ننس أن النشوة الدينية ، وهي أسمى صور
الانتشاء الروحي الذي يستطيعه البشر ، تنشأ في أغلب الأحوال عن
نشوة الخس .

يصعب على معظم الناس أن يجلسوا مغمضين عيونهم يفكرون
في ذات الإله فيقودهم التفكير المحض إلى الانتشاء الروحي . وإنما
أغلب ما يحدث هو أنهم يتلون صلوات دينية أو يرتلون فصولا من
الكتب المقدسة فيلتذون بجرسها وينتشون بحلاوة لوكها في اللسان

ولذة وقعها على الأذن ، أو يستمعون إلى المزامير والطبول وغيرها
من آلات الموسيقى التي تفرع في طقوس معظم الديانات ، أو يهزون
أجسامهم في الرقص الديني أو في حلقات الذكر ، أو يتأملون
بعيونهم تماثيل الآلهة أو صور الملائكة والقديسين والقديسات ، أو
يشمون البخور الذي يحرق في المعابد والكنائس ، أو يلبسون بأصابعهم
الاستار التي تحجب الآلهة أو الأولياء أو يلبسون غيرها من الطلائع
المقدسة ، فيحدث فيهم انفعال حسي عن طريق العين أو السمع أو الشم
أو اللمس ، أو عن أكثر من طريق واحد منها ، فإذا بلغ هذا الانفعال
الحسي أوجه في الحدة والانتفاض هاجهم هياجاً عنيفاً هو الذي يتولد
عنه الانتشاء الديني الرفيع الذي يصعد بأرواحهم في أسنى الآفاق التي
تبلغها النفس البشرية .

فإذا أدركنا هذا لم نستغرب على السذج في بداءة تفكيرهم
وبساطة عقولهم أن يعتقدوا أن نشوة السكر من نشوة الدين ، حين
يتأملون إرهاف الشراب للحس واستفزازه للأعصاب وسورته
بالعقل ، وهذا عين ما حدث لأبي نواس . ولكن أبا نواس لم يصل
إلى هذه الحالة من تقديس الخمر حين يشربها فحسب بل كثيراً
ما بلغها من محض النظر إليها . فانفعاله البصري بمنظر الخمر اداته العظمى
إلى شعور الرهبة والخشوع والتقديس .

عين أبي نواس هي التي تقوده في أغلب الأحيان إلى انفعاله الديني أمام
الخمر ، وهي تفعل هذا لسببين ، تأمله في ضوء الخمر ، وتأمله في لطافة جرماً .

فهو يتأمل بعينه منظرها الرائع في كاسها ، كيف تلتقط أشعة الضوء وتعكسها متكسرة متلاثلة ، وكيف تتوهج وتتقد نورا ونارا ، فيضطرب اضطرابا شديدا . تالأو نورها يخطف عينه خطفا ، حتى ما يستطيع أن يديم فيها النظر ، فيضطرب إلى إغماض جفونه ليقى مقلتيه من مسطوة وهجها ، وما يلبث عقله أن يأخذه الدوار ، وينتقل من الإعجاب بجمال منظرها إلى الارتياح من تألقها الأخاذ ، ويحس بالرهبة والخشوع أمام هذا السنى الخاطف للأبصار ع qar كأن البرق في لمعائها تجلى لأبصار فكادت له تعمى

تكاد تخطف أبصارا إذا مزجت بالماء واجتليت في لونها الجمال

وقهوة عتقت في بيت شماس تفتت في كاسها عن ضوء مقباس لولا مداراة حاسيها إذا اقتربت من فيه لانهبت من مقلة الحاسي وهكذا ينتقل من الانفعال الحسى إلى النشوة الدينية ، فأخذها لعينه ، واضطراره إلى تغميض جفونه ، يملؤه بالهيبة والرهب ، فيبتدىء يخلع عليها صفات الإله الذى تحسر أمامه العين البشرية ، ويتحدث عنها بأسلوب يذكرنا بالنار المقدسة التى تتحدث عنها مختلف الديانات كأن نارا بها محرشة نهاها تارة ونغشاها تلتب الكف من تلها وتحسر العين أن تقصاها

فردد طرفه كيما يراها فكل الطرف من دون الحجاب

كانها في زجاجها قبس يزكو بلا سورة ولا هب
أولست النار التي يتحدث عنها في الآيات التالية وأمثالها أشبه
شيء بنار موسى المقدسة؟

فعلت في البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح في الظلم
فاهتدى سارى الظلام بها كاهتداء السفر بالعلم

وسيارة ضلت عن القصد بعد ما بدا دونهم أفق من الليل مظلم
فلاحت لهم منا على البعد قهوة كأن سناها ضوء نار تضرم
إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم وإن أظهرت حشا الركاب ويمموا

وأما السبب الثاني فهو تأمله لمبلغ رقتها ودقة مادتها ولطف جرورها
حتى تكاد لا تكون جرما بحس ، وهذا أيضا يدفعه إلى أن يخلع
عليها صفة الإله الذي لا تدركه الأبصار

كرخية قد عتقت حقة حتى مضى أكثر أجزائها
فلم يكد يدرك خمارها منها سوى آخر حوبائها

طوى عليها الدهر أيامه وعميت عنها المقادير
فلم تزل تخلص حتى إذا صار إلى النصف بها صير

جاءت كروح لم يقم جوهر لطفاً به أو يحصه نور

فأتاك شيء لا تلامسه إلا بحس غريزة العقل

ترى الحباب بمثله صعدا جلت مسالكها عن الحس
على أن أجمل مقطوعاته وأقواها تأثيراً فنياً هي حين يجتمع عليه
السببان ، فيطرب لشدة سطوعها ولرقة جرمها معاً . تأمل قوله :

دق معنى الخمر حتى هو في رجم الظنون
كلها حاولها الناظر من طرف الجفون
رجع الطرف حسيراً عن خيال الزرجون
لم تقم في الوهم الا كذبت عين اليقين
فمق يدرك ما لا يتحـرى بالعيون ؟

وأطل النظر في هذين البيتين الفذين ، تفتتن عينه افتتاناً شديداً ،
فينفي أن الخمر سائل ، ويعدها جرماً بالغ اللطف من جنس النور ،
أولا ترى تمام امتزاجها بالنور ، وكيف تتولد عن امتزاجهما الأضواء
والأشعة اللانهائية ؟ فالنور يضيف إليها وهي تضيف إليه ، ومن
هذا التزاوج تشع الأنوار الدائمة تتولد وتتراقص ثم تتكسر وتتناهي
ثم تتولد من جديد

رقت عن الماء حتى ما يلائمها لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلومزجت بها نوراً لمازجها حتى تولد أنوار وأضواء

هكذا عبد الخمر ، وتلك هي المؤثرات المتنوعة التي ابتعثت في نفسه
نحوها إحساسات الروعة والمهابة والتقديس ، مؤثرات حسية وفكرية ،
عاطفية وفنية ، حتى لا يتمالك نفسه من أن يسجد لها حين تهل عليه
في كائنها .

فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطع دون السجود لها صبراً !
وينظم فيها مقطوعات هي في صميمها أناشيد دينية وصلوات يرتلها
في محراب الخمر ، وسنعطى القارئ منها بضعة أمثلة ، فإن أراد أن
يستخرج منها أقصى تأثيرها الفني فليرتلها ترتيل العباد لصلواتهم ،
وليسمح لما فيها من النشوة أن تستولى عليه حتى يطرب حسه وتشمل
روحه ، وليهتز بجسمه مع ضربات نغمها كما يفعل الصوفية حين يتغنون
بأناشيد عشقهم الصوفي :

اسقني والليل داج قبل أصوات الدجاج
اسقني صهباء صرفاً لم تدنس بمزاج
ما رأيت مذ عصروها نار ضوء للسراج
تسجت من كرم كسرى قبل أبان النجاج

هي لدفع الهم والأحـ زان من خير علاج
حبذا ذاك لقاحا في أباريق الزجاج

(لعلك لاحظت كيف يذكرنا قوله « هي » بتسكين الياء بصياح
الصوفية في ذكرهم « هو . هو . هو . »)

اسقنيها بسواد قبل تفريد المنادى
من عقار بلغت في الـ دن أقصى مستزاد
رضعت والدهر ثديا وتلتـه في الولاد
سمتها عند مجوسى خصيب المستزاد
فاشتريناها بما يعـ دل مقروح الفؤاد
فشربنا شرب قوم عطشوا من عهد عاد !
بين أفناء عريش عمدوه بعماد
في دنان مسندات معلبات بمداد
أنفذوهن بطعن مثل أفواه المزداد
فتراءت كـشهاب يتراءى من زناد
ثم لما مزجوها وثبت وثب الجراد
ثم لما شربوها أخذت أخذ الرقاد

(هل لاحظت كيف يقسم البيت تقسيمات تسمح له بأن يهتز بحسده
يمنة ويسرة مع كل تقطيعه ؟ أنظر مثلا قوله : « في دنان - مسندات -

معلمات - بمداد . أوقوله : « فترأت - كشهاب - يتراءى - من زناد ،
ثم أنظر كيف يتهالك في شطره الأخير في غيبوبة الانهاك » أخذت
أخذ الرقاد . »

أحى لى يا صاح روحى بغبوق وصبوح
قهوة صهباء بكرا غرست أيام نوح
تطرد الهم ويهـ تز لها قلب الشحيح
يخنج القلب إليها فى الهوى أى جنوح
عظفت نفسى عليها بهوى غير نزوح
تلك لا أعدمنها الله روحى دون روحى

باكر اليوم الصبوحا واعص فى الخمر النصوحا
واسقنيها من عقار عهدت فى الفلك نوحا
قهوة تقرن فى جسـ مك مع روحك روحا
فاذا صادفت منها نفحة خيلت نصوحا
ثم لا يركب منها مركبا إلا جموحا

(ما نحسبه حين أنشد بيته الأخير إلا جمع به انفعاله حقا كما يفعل
المهتزون فى حلقات الذكر حين يبلغ دوارهم أقصاه .)

★ لاح إشراق الصباح فاطرد الهم براح
لست بالتارك لذا ت الندامى للصلاح
قل لمن ينبغي صلاحى بعت رشدى بطلاحي
ظفرت كف أريب باع برا بجناح
أطيب اللذات ما كا ن جهازا باقتضاح

(فى هذه الأبيات بلغت نشوته مداها فحملته على هذا التحدى
الصارخ .)

★ أله بالبيض الملاح وبقينات وراح
لا يصدنك لاح هو عن سكرك صاح
ليس للهم دواء كاغتباق واصطباح
فلعمرى ما يداوى الهم بالمساء القراح

والقارىء لا شك قد لاحظ أن جميع هذه القطع التى اخترناها
- ونظائرها فى ديوانه كثيرة - هى من بحر الرمل بضر به المجزوء الصحيح
ولا يحتاج القارىء إلى أن نلفته كيف يلائم هذا الوزن ملاءمة غريبة
اهتزاز الشاعر وتشبيهه فى نشوته . ولعله لاحظ أيضا جمال روى الحاء
فى القطع الأربع الأخيرة . ولا أظننا يجمع بنا الخيال حين ندعى
أن لهذا الحرف انسجاما فائقا مع عاطفته ، فالحاء تكاد تكون نفسا

خالصا أو نفحة قوية ، ولهذا ختموا بها الريح والروح والراح . . .
 في هذه المقطوعات الفريدة ومثيلاتها لا يهم كثيرا معنى الأبيات
 وإنما المهم أن تتابع هذه الأنغام العذبة والضربات المرقصة ، وهي
 تمثل أبا نواس في أوج انفعاله الحسى والروحى ، وما أن تنتهى من
 قراءتها ، إن قرأتها بالطريقة التى شرحناها آنفا ، حتى يأخذك دوار
 شديد يذكر بك « دروشة » الصوفية حين ينشدون خمرياتهم الإلهية
 ولا تملك نفسك أن تطرب معه وتهيم وتتثنى نشوة ، مهما يكن رأيك
 فى خمرة ، فخر العنب قد تكره وتجتنب ولكن خمر الفن هى
 السحر الحلال . . .

حين نزداد تأملا فى عاطفة أبى نواس نحو الخمر ، نستكشف
 ظاهرة غريبة لم أجد من نقادنا المحدثين من اهتم بدراستها أو أدرك
 مغزاها ، وهي شعوره الجئسى نحو الخمر .

والذى صرفهم عن أن يدركوا أهمية مايقوله فى هذا الموضوع
 أنهم أخذوا كلامه على أنه مجاز من القول ، مجرد تشبيهات أو استعارات
 ووسيلة صناعية من وسائل التطرف . فمنهم من أعجبه « ظرفه » هذا
 وظنه مليحا ، ومنهم من استثقله ، ولكنهم جميعا لم ينتبهوا إلى أن
 أبا نواس إنما يصف حقيقة واقعة حرفية يجدها فى تكوينه النفسى
 العجيب .

فأبو نواس قد أحس نحو الخمر بإحساس جنسى، نعى أن الخمر هاجت فيه شهوة المواقعة، لا مواقعة النساء أو الغلمان، بل مواقعة الخمر، وأن شربها أرضاه إرضاء جنسياً.

وهذا زعم سيدهش له الكثيرون وينكرونه أو يسخرون منه فهم يصعب عليهم أن يصدقوا أن إنساناً ما يحس بالرغبة الجنسية نحو مادة لا حياة فيها ولا جنس لها، وسبب هذا أنهم يعتقدون أن المجال الوحيد لظهور الرغبة الجنسية هو بين السكان الحى الذكر والسكان الحى الأنثى (أو الذكر فى حالة الشذوذ الجنسى)، وأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق اللذة الجنسية هى المواقعة المعروفة بين الفردين.

ولكن الأبحاث النفسانية الحديثة قد استكشفت أموراً عجيبية ترغمنا على التسليم بخطأ هذه الفكرة، وترينا حقائق ثلاثاً. أولاً أن الشعور الجنسى أعم وأشمل مما كنا نظن، وثانيتهما أن الرغبة الجنسية لا تقتصر على الزوج والزوجة ومن فى حكمهما، وثالثتهما أن الأرضاء الجنسى ليست وسيلته الواحدة المواقعة المعروفة.

فالشعور الجنسى فى الإنسان أوسع ميداناً وأطول زمناً مما يظن أكثرنا. هو لا يبدأ فىنا فى فترة المراهقة وحدها، ولكن قبلها بمدة طويلة، فى سن السابعة أو الثامنة دون شك، بل يعتقد بعض العلماء أنه يبدأ فى الطفل الرضيع، فىرى هؤلاء أن ما يتلذذ به الوليد

من مص ثدى أمه ، وتحريك نخديه ، والتبول ، والعري ، كل ذلك يعطيه لذة جنسية .

والرغبة الجنسية لا تنشأ بين الزوجين ومن في حكمهما فحسب بل تدخل في كثير من العلاقات التي كنا ننزهها عن الشعور الجنسي ، فهي مثلا - تنشأ نشوءا باطنا خفيا لا يدركه صاحبه إدراكا واعيا - بين الأم وولدها ، وبين البنت وأبيها .

والأرضاء الجنسي لا يقتصر على الأعضاء الجنسية الأولى ، بل تحققه أعضاء أخرى باللمس والشم والذوق والسمع . وكلنا يعرف أن هذه الارضاءات الثانوية توجد فينا جميعا وتقترب بالارضاء المباشر وتقوى من حدته ولذته .

ولكننا لا نعى هذا وحده . بل نعى أن بعضنا من الشواذ تزيد لديهم أهمية الارضاءات الثانوية حتى يكتفوا بها ويفضلوها على الارضاء المباشر . ويتضح هذا في أعجب صوره فيما يسميه العلماء sexual fetishism ، وهو اتخاذ بعض المنحرفين أشياء مادية يهيمون بها هياما جنسيا شديدا وتثير فيهم شهوة الواقعة ويحققون هذه الشهوة بمجرد ضمها ولمسها وشمها . وسجلات البوليس والمصحات تفيض بحوادث هؤلاء الشذاذ الذين يسرقون جوارب النساء وملابسهن الداخلية ويستغنون بها عن الوصلة المعهودة بالنساء .

ثم تأمل في ظاهرة أخرى كبيرة الانتشار ، وهي ما يسميه العلماء

phallism وهي اتخاذ رموز ترمز إلى الأعضاء الجنسية فيكون عشقها أو عبادتها متنفسا لهذه العاطفة . وقد استكشف العلماء من هذه الرموز أمثلة كثيرة بعضها سهل التصديق وبعضها محير ، وقد يكون بعضهم - من تلامذة فرويد - بالغوا في استكشاف الرمز الجنسي في مختلف الأشياء ، ولكن لاشك أن نزعة الرمز الجنسي نزعة حقيقية توجد في جميع الأمم البشرية .

أضف إلى هذا كله حقيقة « التسامى » التي يسلم بها الآن جميع العلماء ، وفيها لا تتخذ الرغبة الجنسية الوسائل المعروفة في الارضاء ، صحيحها وشاذها ، بل تسلك مسالك أخرى من النشاط ما كنا نحلم أبدا أن فيها تنفيذا عن الرغبة الجنسية ، مثل الاشتغال بالفنون المختلفة ، والانهماك في الخدمات الاجتماعية النافعة والجمعيات الخيرية الشريفة ، والتسابق في الخدمة الوطنية ، بل حرارة الإصلاح الديني والحملة الأخلاقية لتطهير المجتمع من الآثام قد تكونان نابعتين عن طاقة جنسية زائدة تحقق نفسها في غير مجال الجنس .

إذا تدبر القارئ هذه الحقائق والتفسيرات ، فقد لا يستنكر أن يقال له أن أبا نواس أحس نحو الخمر اشتها جنسيا ، ووجد في ارتشافها إرضاء لشهوته تلك . لا ندعى أن كل ما قدمنا من شرح يجعل عاطفته تلك أمرا عاديا لا غرابة فيه ، فإنها لا تزال بعد كل شرح أمرا شاذا غريبا . ولكن هذه اشعاره تنطق بما ادعينا نطقا لا خفاء فيه

ولا يجعل بنا حاجة إلى تعسف في تحليل نفسى أو إسراف فى جدل نظرى . وكل ما يحتاج إليه قارئها هو أن يقبلها على أنها أوصاف تقريرية لشعوره الفعلى وأن ينتزع من ذهنه — انتزاعا مؤقتا على الأقل — فكرة أنها مجرد مجازات .

فأبو نواس يسمى الخمر بأسماء « بكر » و « عذراء » و « فتاة » وما يشبه هذه من تسميات ، ويصف فعل الماء بها حين يمزج بها بأنه « حل المئزر » ، ويصف بزل دنها أو شربها بأنه « افتتضاض البكارة » و « افتتضاض العذرة » و « افتتضاع » .

ومر ذا فرح يسعى بمسرجة فاستل عذراء لم تبرز لأزواج

زرتها خاطبا فزوجت بكرا ففضضت الختام غير ملهم
عن فتاة كأنها حين تبدو طلعة الشمس فى سواد الغيوم

لما اجتملاها للندامى بدا لها نسيم عبير ساطع ولهيب

كأنها حين حل الماء مئزرها شبيبت بمسك زكى العرف مرفوت

وقام بمبزل فافتض بكرا عجوزا قد تجل عن المديح

حمراء علقها بالماء شاربها نفتض عذرتها في بطن رحراح

فافترعنا مزة الطعم فيها نزق البكر ولين العوان

والذى يتأمل مليا في الأبيات الثلاثة :

ثم أتت في الحجاب يخفرها مشى هوينى ما إن به نزق
فبادروا لا فتضا عذرتها بناقد في شباته زلق
فسال منها مثل الرعاف دم يشفى به من سقامه الصعق

يرى أن مجيء الخمر في حبابها بالهيئة التى يصفها هو مجيء العروس
المتزينة تتخطر في ثياب زفافها ، وأن هذه الآلة الحالة التى يصفها
بأنها « ناقد في شباته زلق » ، وهى الميزل الذى يشقب به الدن ، رمز
للعضو الذكري ، وأن سيلان الخمر الحمراء من الدن المشقوب يقوم
مقام سيلان دم العذارة من البكر المفوضة ، وأنه وجد لذة عنيفة
في ثقب الدن بهذا الميزل وفى تأمل سيلان الخمر من الثقب . وهذه
أبيات أخرى لا تترك مساعا للشك

حتى بخيرت بنت دسكرة قد عاجمتها السنون والحقب
هتكت عنها والليل معتكر مهلهل النسج ماله هذب
من نسج خرقاء لا تشد لها أخية في الثرى ولا طنب
ثم توجأت خصرها بشبا ال إشنى فجاءت كأنها لهب

تأمل في عنف ألفاظه ، وفي مغزى المفردات التي يختارها ،
 « هتكت » ، « توجأت ^(١) » ، « خصرها » . وقد مر من التفكير يبين لنا
 أن هتكه لنسج العنكبوب الرقيق الذي جلال الدن يقوم مقام هتك
 غشاء البكارة الرقيق ، وأن شبا الأشفى ، أى الطرف الحاد للمثقب ،
 ليس إلا رمزا جنسيا مرة أخرى ، وأن قوله « جاءت كأنها لهب »
 هو صورة العروس تتلهب شهوة نحو بعلاها في لقاءهما الأول . وأن أبا
 نواس وجد في كل هذه الأخيلة لذة عنيفة .

وحين يلامس فمه قدحها فيرشف رحيقها بتشوق فهذا تقبيل
شفقة له نفس اللذة التي في تقبيل فم الأنثى أو خدها

ترحل عن صدره الهموم إذا قبل فوه بلذة فاها

فاذا ما المرء قبلها اسكرته لذة القبل

ما مثل نعمها إذا اشتملت إلا اشتمال فم على خد

وتأمل عنف ذلك التقبيل الذي وصفه في أبياته الثلاثة . فهو تقبيل
 بلذة ، وهو قبل كثيرة مسكرة ، وليس مجرد تلامس بل هو « اشتمال »
أى أن شففيه تحتويانها بنهم وإطالة . ابعدها هذا كله نظن أن هذه مجرد

(١) وجاء وتوجأه باليد والسكين ضربه ووجأ المرأة وتوجأها جامعها .

مجازات؟ ولكن دعنا ننظر في أوصافه الأخرى . فالخمر انثى تبرز
في زينتها لتغري الناس ، وتشوق إلى المواقعة وتطلبها بالحاح ، وتثب
وتمرح في تمام شبابها واكتمال أنوثتها
والخمر قد برزت في ثوب زينتها فالناس ما بين مخمور ومصطبح

نفتض بكرا عجوزا زانها كبر في زى جارية في اللهو ملحاح

فأبدى لنا صهباء تم شبابها لها مرح في كأسها ووثوب
وهي لشدة تشوقها إلى المواقعة عظيمة الحدة والنزق والاضطراب،
ولكنها تتمكن زوجها منها بسهولة ولين كالمرأة المجربة
فافترعنا مزة الطعم فيها نزق البكر ولين العوان
وإذا لمسها الماء وضرب في أحشائها أظهرت أنواعا من الغنج وفنونا
من الإثارة الجنسية ، وهاجت شهوتها الكامنة واشتد شبقها فلم تكف
بقبول مواقعه قبولا سلبيا بل اهتمجت تحت بعلها وبادلته
عنفا بعنف

وإذا ما الماء واقعها أظهرت شكلا من الغزل

إذا جرى الماء في كوامنها هيح منها كوامن الشغب
فاضطربت تحته تراحمه ثم تناهت تفتر عن حبيب

والتأمل في شطره الاخير البارع يجد انه يصف انتهاء الانثى الى تحقيق لذتها وتمام الارضاء الجنسي ، ففوران الحب الابيض ليس الارمزا لتدفق السائل المنوى ؛ وهذه الابتسامة التي يصفها هي التي تكسو فم الانثى إذ تنتهي إلى السكون والرضى والسعادة حين تتحقق لذتها الكاملة بعد ذلك الجهد الغنيف فتبتسم هائلة قريبة .

أو هي عروس حية خجول ، تجزع من مس الذكر
زوجتها الماء كي تذبل به فامتعضت حين مسها الذكر
كذلك البكر عند جلوتها يظهر منها الحياء والخفر
وهي من فرط جزعها تحاول أن تهرب من الماء ، ولكن الكأس
تمسكها وتمنعها من الخلاص ، وهذه صورة العروس المروعة تحاول أن
تهرب من زوجها في الليلة الأولى في أنحاء الحجرة والحجرة موصدة
عليها

كانها عند مس الماء من جزع والماء يجزع فيها شبه فرار
والكأس تمسكها من أن تراع فما تنفك فيها باقبال وادبار
أو هي متشوقة وجزعة معا ، وزوجها يأخذها بالعنف وينتهرها
أن تسكن وتهدأ له

قد قلت حين تشوقت في كأسها وتضايقت كتضايق العذراء

لا بد من عض المراهف فاسكنى وتشبك الأحشاء بالأحشاء
 ولاحظ مرة أخرى عنف ألفاظه . أو هو يحايلها بالملاينة
 ويناجيها بإغراء حتى يهدى من روعها ويغاب شوقها على خوفها
 تأبى النكاح اعتزازاً أن تلين له حتى إذا هي ناجته وناجاها
 لانت له بعد أن كانت تمنعه حتى إذا قصرت عن ذلك حلاها (١)
 يستطيع القارىء بعد هذه الدراسة أن يرجع إلى اشعاره المشهورة
 التى يتحدث فيها عن خطوبة الخمر ، يجعل مشتريها خاطباً لها ، ويجعل
 بائعها ولى أمر العروس ، يغالى فى مهرها ، إلى أن يتم الاتفاق فيدفع
 المهر ويعقد القران ويتم الزفاف . ولعل القارىء لا يعود يرى فى
 هذه الاشعار مجرد صور مجازية أو أسلوب من التظرف والتنادر
 يحده لطيفاً أو يحده سخيلاً
 خطبنا إلى الدهقان بعض بناته فزوجنا منهن فى خدره الكبرى
 وما زال يظلى مهرها ويزيده إلى أن بلغنا منه غايته القصوى

فقال اربعوا ، عندى التى تطالبونها قد احتجبت فى خدرها حججاً عشرة
 فقلت فماذا مهرها ؟ قال مهرها إليك ، فسقنا نحوه خمسة صفراً
 فقلت له خذها وهات نعاظها فقام إليها قد تملى بنا بشراً

فشك باشفاء له بطن مسند فسالت تحاكي في تالألؤها البدر
وجاء بها والليل ملق سدوله مدلا بأن وافي محيطا بها خبرا
ريبة خدر راضها الخدر اعصرا فكانت له قلبا وكان لها صدرا
واشعاره في هذا الموضوع كثيرة ، ولكن لعل أجودها هي
الآيات الآتية ، وفيها يصل بالفكرة إلى غايتها

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل يأخذ منها ملاء ذهب
قصرت بالراح ! فاحذر أن تسمعها فيحلف الكرم ألا يحمل العنبا
إني بذلت لها لما بصرت بها صاعا من الدر والياقوت ما ثقبها
فاستوحشت وبكت في الدن قائلة يا أم ويحك أخشى النار واللهبا
فقللت لا تحذريه عندنا أبدا قالت ولا الشمس ؟ قلت الحرق قد ذهب
قالت فمن خاطبي هذا ؟ فقللت أنا ! قالت فبعتي ؟ فما استحسن الخشبا
قلت لقاحي ؟ فقللت الثلج أبرده فرعون ، قالت لقد هيجت لي طربا !
قلت القناني والاقداح ولدها ولا اللثيم الذي ان شمنى قطبا
لا تمكثني من العرييد يشربني ولا اليهود ولا من يعبد الصلبا
ولا المجوس فإن النار ربهمو غر الشباب ولا من يجهل الأدبا
ولا السفال الذي لا يستفيق ولا من السقاة ولكن اسقني العربا !
ولا الأراذل إلا من يوقرني يا قهوة حرمت إلا على رجل
هذه أبيات حلوة التنعيم عظيمة الإثشاء للقلوب ، فيها يتجلى

مقدار حبه للخمر وولفه بها . وهى فى الحقيقة لم تنظم للقراءة ولكن
للغناء الشجى ، وهى بعد صادقة التصوير لتجربة شاهدها الكثيرون
منا ، حين خطبت اختهم ، فجزعت وارتاعت وابت أن تترك منزل
أبويها الذى عاشت فيه طول حياتها وألفتها ، وتخوفت من تلك الحياة
الجديدة الغريبة فى بيت البعل وما سيحدث لها فى « ليلة الدخلة » .
فجاءت إلى أمها باكية منتحبة تقول انها لا تريد أن تزوج ولا تريد أن
تترك أمها وان تخرج من بيت أبويها الآمن الى ذلك البيت الغريب
المخيف . وقوله « اخشى النار واللهيا » ، وإن وصف خوف الخمر من
أن تطبخ ، فهو يصف فى باطنه جزع الفتاة العذراء من نار الاتصال
الجنسى ولهبه . فيستعملون فنون الاغراء فى طمأننتها واثارة شغفها
وتجتمع عليها الأم والعمت والخالات يهدئن من روعها ويزين لها حياة
الزوجية ويصفن لها متعها وجاهها ويطنبن فى ما سيكون لها من الأثاث
الفاخر والمتاع النفيس .

إذا فكر القارئ فى كل ما قدمناه عن حب أبى نواس للخمر
وإجلاله لها ، وعاطفته الدينية أمامها ، وشغوره الجنسى نحوها ، فقد
يعتقد أن فى هذه الإحساسات المتنوعة المعقدة كفاية التنوع والتعقيد .
ولكن بقيت عاطفة أخرى غريبة نريد أن نبينها الآن ، وهى أنه
أحس أحيانا نحوها إحساس الولد نحو الأم ، أى أحبها حبا بنويا .

ففي بعض شعره يسمى الخمر «درة»، والدرة اللبن، ويسمى
شرب الكأس رضاعة

حلبت لأصحابي بها درة الصبا بصهباء من ماء الكروم شمول

تراضعوا درة الصهباء بينهم وواجبوا لنديم الكأس ما يجب

طاب فيها ارتضاعنا الكأس حتى صرعتنا عن ضعفها باقتدار
ونظر إليها نظر الولد إلى الام :

وانظر إذا هي قابلتك تهيؤا نظر اليتيم إلى يد الأم

ولكن لا تهمل أهمية جعله هذا الولد «يتيما»، فهذا يجعله أشد
حاجة إلى رعاية أمه وحنانها فهي موئله الوحيد من أعاصير الحياة .
ولكن أقوى شعره في هذا الموضوع أبياته الرائعة :

قطر بل مربعي ولي بقرى الـ كرخ نصيب ، وأمي العنب
ترضعني درها وتلحفني بظلها والهجير يلتهب
فقممت أحبو إلى الرضاع كما تحامل الطفل مسه السغب

وهو وصف دقيق مؤثر لحاجته إلى حنان الأم وظمأه إلى رعايتها،
تأمل في هذا الطفل الضعيف المتهافت الخائر القوى يتحامل على نفسه
ويجر جسمه الظامء المضرور ويدب بجهد إلى أمه يلتمس ثديها ليشبع

جوعه ويبل عطشه وينشد صدرها الواسع الرحيم يستظل به ويحتفى
من قسوة الطبيعة حوله .

قلنا في فاتحة هذا الفصل أن تأمل موقف أى نواس من الخمر
وتحليل العواطف المختلفة التى أثارتها فيه يطلعنا على تعقد نفسيته .
فأى نفسية عجيبة هذه التى تكتظ بهذه الإحساسات الغريبة ؟ هذا
ما نريد الآن أن ندرسه حتى نفهم سر هذا التعقد ونرجعه إلى أصوله
الطبيعية والتربوية ، وهو ما سنحاوله فى الفصلين التالين .

الفصل الثاني

الشذوذ الجنسي

شغفه بالغلان . صدور النقاد عن هذا الموضوع ، أهميته الحققة
فى فهم نفسيته وفنه ، مبلغ حبه للغلان . عزوفه عن النساء . نوع
علاقته مع النساء . أسباب الشذوذ الجنسى . عوامل التكوين
الجانسانى . عوامل التربية النفسانية . الظروف الاجتماعية . الشذوذ
وانحلال الحضارة . الشذوذ والفنانون . هل نقبل تبريرهم ؟ أسباب
شذوذ أبى نواس . أكان شذوذا جسانيا ؟ نشأته وأحداث طفولته .
ظروف مجتمعه . الشذوذ فى الحضارة الإسلامية . رابطة الأم هى
سبب اشمزازه من النساء . المغزى الصحيح لقصته مع جنان . آثار
شذوذه فى شاعريته . غزله بالمذكر . عاطفته الجنسية وعاطفته البنوية
نحو الخمر . التعويض وتحقيق النزوع الفاسق .

حقيقة أخرى مشهورة : أن أبى نواس أحب الغلان وفضل
مواصلتهم على مواصلة النساء . ولكن قل من نقادنا المحدثين من

وقف أمام هذه الظاهرة الهامة يستوفى دراستها ، فمعظمهم لا يزيدون على الإشارة السريعة العابرة .

وقد يكون بعضهم خائفة شجاعته الأدبية دون التعمق في هذا الموضوع المخرج ، وبعضهم ربما أعوزته الثقافة العلمية الكافية التي تؤهله لتفهم هذه الظاهرة واستكشاف أسبابها . ولكن السبب الأعظم لصدوفهم عن دراسة شذوذ الجنس أنهم لم يقدرُوا مبلغ أهميته الحقة ومدى تأثيره في شخصيته .

اعتقدوا أن شذوذه هذا لا يزيد عن أن يكون صفة عارضة ليس لها أثر جوهري في تكوينه ، لا تزيد عما لو كان أعرج أو ملتوى الأنف أو محدودب الظهر . والحق أن شذوذه الجنسي كان — كما سنشرح — ذا تأثير خطير فيه وفي فنه ، بل ربما يكون المحور الرئيسي الذي يدور عليه فهم شخصيته وفهم خصائصه الشعرية . وإن ناقدًا يحاول أن يدرس شخصيته ويدرس فنه دون أن يهتم اهتمامًا عميقًا بتفهم شذوذه وتدبر أثره فيه كرجل وأثره فيه كأديب ليحاول أمرًا مستحيلًا . ولكني لم أجد من اهتم اهتمامًا جديًا بهذا الموضوع سوى الأستاذ عبد الرحمن صدقي ، الذي خصص من كتابه الممتع « ألحان الحان ، اثنتين وعشرين صفحة قيمة في دراسة الشذوذ (١) .

أما مبلغ افتتانه بالغلان وهوسه بحبهم فخير ما يحليه أن تتأمل
في بضع مقطوعات غزلية تنطق بصدق العاطفة وتصهرها حرارة
الهيام

أما والله لا أشرا	حلفت به ولا بطرا
لو أن مرقشا حي	تعلق قلبه ذكرا
وأيقن أن حب المر	د يلقى سهله وعرا
ولا سيما وبعضهمو	إذا حييته انتهرا
كأن ثيابه أطلعه	من من أزراره قمرا
ومر يريد ديوان الـ	خراج مضمخا عطرا
بوجه سابري لو	تصوب ماؤه قطرا
وعين خالط التفثيد	ر في أجفانها حورا
وقد خطت حواضنه	له من عنبر طررا
يزيدك وجهه حسنا	إذا مازدته نظرا

وهي أبيات على نصيب كبير من الحسن والاطراب، حلوة التنعيم
خفيفة المقاطع رقيقة القافية، تتنالى في عذوبة غنائية ممتعة. ولكن
دعنا نتأمل في الصورة التي ترسمها. هذا أبو نواس يقف في مكان
يعرف أن الغلام سيمر به بعد برهة في طريقه إلى عمله بديوان الخراج
(ومن هذا نستنبط بمعرفتنا بأحوال العصر أنه غلام أعجمي).
فيتربط طلوعه بهفة واضطراب، ثم يهل عليه هذا الوجه الحبيب

فيهتز شوقا وجوى ، ويتملى طلعتة البهية المنيرة كأنها القمر ، وبشرته
الرقيقة الحريرية فتتلف أنامله أن تلمسها وتداعبها ، وتسحره عينه
الحوراء ذات النظرات الفاترة وطرته الرشيقة المعطرة . فيحييه بحسرة
وتضرع فلا يلقى منه سوى الصد والانتهاز الغاضب فيزداد هواه
اضطراما . وحين وصف جمال وجهه ببذته الأخير فانه لم يصف
الغلام الجميل وحده ، بل خالص إلى النعت الخالد لكل جميل صادق
الجمال ، سواء أ كان وجها أم كان زهرة أم كان غديرا ، وسواء
أ كان موجودا في دنيا الطبيعة أم كان مسجلا بريشة الفن العبقري ،
فجماله لا ينتهى ولا يمل ما نظرت إليه ، بل كلما زدته تأملا تكشفت
لك منه محاسن جديدة فازددت تقديرا بالحسن المثالى الذى يتراءى
من خلاله

تمر فاستحييك أن اتكلما ويثنيك زهو الحسن عن أن تسلم
ويهتز في ثوبيك كل عشية قضيب من الريحان شب منعم
بحسبك أن الجسم قد شفه الضنى وأن جفوني فيك قد ذرفت دما
أليس عظيما عند كل موحد غزال مسيحي يعذب مسلما
فلولا دخول النار بعد بصيرة عبت مكان الله عيسى بن مريما

هذه هي الأخرى مقطوعة صادقة التلهف محرقة الزفرات . ولولا
صدق حبه لما عقد الحياء لسانه حين لقيه عن أن يكلمه ، فما بعد
هذه علامة على صدق الحب . ولا تخدعك هذه الملمحة المضحكة التى يأتى بها

في بيته الرابع عن إدراك مدى حسرته وشجاء ، فهي ابتسامة مزوجة
بالدمع وضحكة يقطعها الأنين ، فهو كأحدنا حين يبلغ ألمه مداه
فيفرج عنه بأن يسخر من نفسه ويضحك غيره منه واصفا مقدار
سوء حظه ومعاكسة القدر له . فان كنت تظن أن بيته الأخير
هو أيضا مداعبة وتظرف فان لنا فيه رأيا خرا منشرحه في موضع
قادم من الكتاب .

✱ قل لذى الوجه الطير ولذى الردف الوثير
ولمخلاق همومى ولمفتاح سرورى
والذى يبخل عنى بقليل من كثير
يا صغير السن والمو لد فى عقل الكبير
وقليلا فى التلاقى وكثيراً فى الضمير
لم تغضبت على عبـ دك فى خطب يسير
فارض عنى بحياتى يا حياتى واميرى

تأمل هنا أيضاً هذا التوسل الضارع والشكوى الناشئة ، واستمع
كيف يتذلل لهذا الغلام المليح ويستعطفه بأحر اللهفات فيتهدج صوته
وتسخن زفرته حنى ما نخال الدمع الصادق الا انحدر من عينيه . وهى
أبيات تكاد مقاطعها تذوب رقة ويهم حنانها أن يحيلها إلى نغم موسيقى
خالص .

✱ اننى أبصرت شخصا قد بدا منه صدود

جالسا فوق مصلى وحواليه عبيد
 فرمى بالطرف نحوى وهو بالطرف يصيد
 ذاك فى مكتب حفص (ان حفصا لسعيد !)
 قال حفص : إجلدوه ! انه عندى بليد
 لم يزل منذ كان فى الدر س عن الدرس يحيد
 كشفت عنه خزوز وعن الخز برود
 ثم هالوه بسير لين ما فيه عود
 عندها قال حبيبي يا معلم ! لا اعود !
 قلت : يا حفص اعف عنه ! انه سوف يجيد

وهى تروى قصة قل فى الشعر العربى ما يساويها ابداعا وتأثيرا ،
 تمتزج فيها الفكاهة البارعة بالألم الممض فلا ندرى انضحك أم نبكى ،
 ولعلنا نفعلهما معا . وقد بلغ به صدقه فى روايتها أنه نسى أوامر
 النحاة فحكى أسلوب الحديث كما يحدث حقا ، كما ترى فى قطعه همزة
 « إجلدوه » كى يدل على بدء العبارة المقولة ، وفى تسكينه آخر « يا معلم » .
 والقصة كما رأيت هى أن أبا نواس زار معلم أطفال من أصدقائه فى
 كتابه ، وهمه الحقيقى ليس زيارة صديقه بل ان يتمتع عينه بالتلى فى
 وجوه غلمانة . فرأى هناك صبيا بارع الجمال ، ويبدو من وصف أبى
 نواس أن هذا الصبي كان من أولاد الأغنياء المنعمين ، فوالده يرسله
 مع عبيد له يجرسونه ، وهو يحضر معه من منزله سجادة خاصة يجلس
 عليها . فأخذ أبو نواس يسارقه النظر ، فصد عنه الغلام أولا ، ثم لما

رأى إلحاحه وولفه أخذ يرمى إليه بالغمزات ليزيده تلهباً . كل هذا في خفية من المعلم « حفص » ومن وراء ظهره ، ولكن لسوء بختهما حانت من حفص التفاتة فأدرك ما هما فيه ، فغضب غضباً شديداً ، ولكن كيف ينفس عن غضبه ؟ لا يريد أن يتهم أباً نواس أمام الجمع حتى لا يثير حول كتابه الاقاويل ، ولكنه يفكر في حيلة ماهرة ، فيستدعي الغلام ويتصنع أنه ساخط على غباوته ، ولعله يسأله سؤالاً فيما كان يلقيه تلامذته ، فلا يستطيع الصبي بالطبع أن يجيب لانه كان منشغلاً بمغازلة أبي نواس ، فيصيح المعلم : انت إذن لم تكن ملتفتاً إلى ما أقول ، اجلدوه ! إنه بليد العقل شارد الذهن عن الدرس . وهنا يصف أبو نواس كيف يخلعون عنه ثيابه الحريرية الفاخرة ويعرون جلده الغض الرقيق ، وأبو نواس يتتبع تعريتهم إياه بجزع واضطراب شديد ، ولكن ماذا يفعل ؟ لا يستطيع أن يتدخل لينقذ محبوبه . ثم ينهالون عليه بالسير المؤلم فيصيح متوسلاً من لدعه ، وهنا لا يملك أبو نواس نفسه فيهب صائحاً يبكي من أجله ويناشد المعلم أن يعفو عنه ، فهذه البشرية البضة الناعمة لم تخلق لهذا الجلد القاسي الفظيع .

على أن هيامه بالغلمان ان كان يدفعه إلى التردد على المسكاتب فقد دفعه في أحيان أخرى إلى حيل أغرب وأدهى

✱ أزاحه إذا صلى لتمسح رجله رجله !
وأطاب تحته نعلي وما إن تحته نعلي !
فهل أحد بما جمشت جمشت شادنا قبلي ؟

ثم تأمل في القطع الجميلة الآتية ، ولا حاجة بنا بعد الى الاطناب
في وصف رقتها وصدق عاطفتها وحنان نجواها .

يمد بها (١) إليك يدا غلام	أغن كأنه رشاً ربيب
غذته صنعة الدايات حتى	زها فزها به دل وطيب
ينوء بردفه فاذا تمشي	تثنى في غلائله قضيب
فان جمشته خلبتك منه	طرائف تستخف لها القلوب
يكاد من الدلال إذا تثنى	عليك ومن تساقطه يذوب

وظي تقسم	الآجا	ل	بين	الناس	عيناه
وتورى البث والاشجا	ن	في	القلب	ثناياه	
وتحكي البدر وقت التم	للأعين	خداه			
تعالى الله ما أحس	ن	ما	صوره	الله !	
ولو مثل نفس الحس	ن	شخصا	ما	تعداه	
له آخرة قد اش	بهت	في	الحسن	دنياه !	
فلو انا جحدنا الا	ه	يوما	لعبدناه		
بنفسي من اذا ما النأ	ى	عن	عيني	واراه	
كفاني أن جنح اللي	ل	يغشاني	ويغشاه		

شبيه بالقضيب وبالكتيب ، غريب الحسن في قد غريب
بعيد ، ان نظرت اليه يوما رجعت وانت ذو أجل قريب
ترى للصمت والحركات منه سهام لا تزداد عن القلوب
ويمتحن الصدور بمقلتيه فينكشف البريء من المريب
فيامن صيغ من حسن وطيب وجل عن المشاكل والضريب
أصبنى منك يا أملى بذنب تتيه على الذنوب به ذنوبى !

ولكننا نكف أنفسنا عن المضى فى الاستشهاد ففى ما قدمناه
الكفاية ، ومن الصعب أن نختار له قطعاً دون أخرى فمعظمها بعيد
الركة شديد الاشياء ، وكلها يشهد بحب لا زيف فيه وينبض بصدق
البث والشكوى والمناجاة ، ويستطيع القارىء أن يرجع الى ديوانه
ان أراد المزيد ، ولكننا ننبهه الى أن شعره فى هذا الموضوع لا يوجد
فى باب الغزل بالمذكر وحده ، بل يوجد كذلك مشتتاً فى خمرياته ،
وفى هذه الخمريات قطع من أجمل ما نظمه فى غزله هذا .

عزله ولفظه على ما هو مع السام

قد يقول القارىء : ولكن أبا نواس تغزل بالنساء أيضاً ، وله
فيهن شعر ليس بالقليل ، وتروى فى أخباره حوادث عديدة عن
تعشقه لهن . وهذا صحيح ، ولا يكفى فى الرد عليه أن يقال ان
شعره فى النساء بارد كاذب وإن شعره فى الغلمان ملتهب صادق ، فان
هذا الاحتجاج الفنى المحض مما يصعب فيه الاقتناع . وانما نجيب بأن
أبا نواس نفسه يفضل الغلمان على النساء فى بعض أشعاره له تفضيلاً

صريحاً قاطعاً ، وأن سيرته تثبت أنه وإن كان استطاع أحياناً التلذذ
بالمرأة فإن تلذذه الأغلب كان بالغلمان . حتى أنهم يروون أنه رفض
الزواج ، يروى ابن منظور في أخباره هذه القصة عن محاولة أهله أن
يزوجوه :

« قدم على أبي نواس أهله من البصرة يعذّلونه على فعله ، ويقولون
له : يا هذا ، انه نفد عمرك ، وساء عملك ، فلو تزوجت امرأة من أهل
بيتك رجونا أن تقصر عن بعض ما أنت فيه . فأبى عليهم ، فما زالوا
به حتى زوجوه جارية جميلة من أهل بيته ، فلما دخل بها أعرض عنها
وخرج إلى غلمان كانوا يأتونه ، فجمعهم وألبسهم الازر المعصفرة
وخلأ بهم يومه ، فلما أمسى طلقها وأنشأ يقول فيها

صاحبة القرقر (١) لا تشغبي	تحمل طالقة واذهي
مرى ، فكم مثلك من حرة	رائعة لم تك من مذهبي
لا أبتغي بالطمث مطمومة	ولا أبيع الظبي بالأرنب (٢)
لا أشتهي الحيض ولا أهله	غيرك أشهى منك في المركب
أولا فان كنت غلامية	من شرط مثلي فردى مشربي
لا أدخل الحجر يدي طائعا	أخشى من الحية والعقرب

(١) ثياب النساء

(٢) الأرنب مشهور لدى العرب بمحضه المتن

وقال أيضا في المعنى :

وعاذلة تلوم على اصطفاي
وقالت قد حرمت ولم توفق
فقلت لها جهلت فليس مثلي
اختار البحار على البرارى
دعيني لا تلوميني فاني
بذا أوصى كتاب الله فينا
غلاما واضحا مثل المهابة
لطيب هوى وصال الغانيات
يخادع نفسه بالترهات
وأحيانا على ظبي الفلاة ؟
على ما تكرهين إلى الممات
بتفضيل البنين على البنات !

ثم يروى ابن منظور ما يعتقد أنه رواية أخرى لنفس القصة ،
ولكن يبدو لنا أنها مناسبة مختلفة ، أو مرة أخرى حاول فيها أهله
أن يقنعوه بالتزوح فرفض ، وهذه روايته :

«وروى أنه لم يتزوجها ، وأنهم دسوا إليه امرأة وقالوا لها كلميه .
فجعلت تقول له : قد وجدت لك امرأة جميلة موسرة ، ولها دار سرية
كبيرة تجعلها لك . فقال لها : ويحك ! لست أنت أدعى إلى الرشد من
الله عز وجل ، وقد دعاني إليه وأبيت ، وليست المرأة التي تصفيتها
بأحسن من الحور العين ، ولا الدار التي تذكرينها بأحسن من الجنة ،
وكل هذا قد بذله لى من هو أصدق منك إذا ارعويت ، فلم أقبل ،
فكيف أقبل منك أنت ؟ ثم قال

أقول لها لما أتتني تدلني على امرأة موصوفة بجمال
أصبت لها يا أخت فخلا كما اشتيت إذا اغتفرت منى ثلاث خصال

فمن فسق لا ينادى وليده (١) ورقة إسلام ورقة مال
ولو أنها في الحسن كانت كيوسف وبلقيس أو كانت كخط مثال
وقالت تزوجني على مهر درهم لقلت اعزبي عني فمهرك غالي

فقال أهله : والله لا أفلح هذا أبدا ، ويئسوا منه .

ونروى أيضا من أخبار ابن منظور هذا الشعر

من كان تعجبه الأنثى ويعجبها من الرجال فاني شفي الذكر
فوق الخماسي لما طر شاربه رخص البنان خلا من جلده الشعر
لم يحف من كبر عما يراد به من الأمور ولا أزرى به الصغر

أنا امرؤ أبغض النعاج وقد يعجبني من نتاجها الحمل
مني عذب الله بالزنا فأنا لا ناقة لي فيه ولا جمل

طمعت في قحبة رب راج مخيب
قلت لما رأيته اذهبي أنت واعزبي
لست والله مدخلا اصبعي جحر عقرب
ابتغى لي مواجرا واذهي أنت قحي

(١) أي لا ينتج ولدا .

وفي ابن منظور قصة أخرى ذات مغزى في هذا الموضوع ، وهي مغازلته لجارية جميلة من جوارى أسماء بنت المهدي ، فيقول ابن منظور « فاشتد عجبها ومازحها ، فلم يزل ذلك دهرًا إذا خرجت لحاجة إلى ما يلي باب القصر عبت بها ، وداعبها وأنشدها اشعارًا يخبرها فيها بحبه لها ، ولا ينكر ذلك عليه أحد لما كان معه من العيب بالناس والمجون ، ولأنه لم يكن يعتد بالنساء . »

وإن دل هذا على شيء فعلي أن جزءًا كبيرًا من غزله بالنساء — إن لم يكن معظمه — ملاعبة غير جدية لا يقصد منها المواصلات الحقيقية بل يبغى التعايب والمداعبة ، وأن معاصريه قد عرفوا ذلك منه . هذا والكثير من أخباره تدل على أنه حين يظفر بهؤلاء الجوارى كان يواصلهن مواصلات الذكور ، وقد صرح هو بهذا في شعره ، وقد كان ذلك مصير جارية أسماء التي تروى عنها القصة الماضية .

يزداد كل هذا وضوحًا حين نتذكر حقيقة هامة : أن أغلب من أعجب بهم من النساء كن من الجوارى الغلاميات ، وهؤلاء كن في تكوينهن الجسماني أشبه بالظلمان ، وكن كذلك يتشبهن بالظلمان في زينهن وفي تصوير شعرهن وفي عدم تحليلهن بالحلي . فجارية أسماء بنت المهدي التي مررت بمرحلتها بمرورها بمرحلة من منظور ابن منظور بأنها « غلامية شاطرة » ، وبأنها مطمومة أي مقصورة الشعر وترتدي ثياب الفتيان . ويصفها أبو نواس بقوله

غلامية في زيتها برمكية مزوقة الأصداغ مطمومة الشعر
وبقوله :

غلام وإلا فالغلام شبيهها وريحان دنيا لذة للمعاق
ويصف عطلها من الحلى وقصها لشعرها بقوله :

تشارك في الصنع النساء وسلمت لمن صروف الحلى غير المناطق
ومطمومة لم تتصل بذؤابة ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق
نستخلص من هذا كله أن اتصال أى نواس بالنساء لم يكن فى
أغلبه من نوع الاتصال العادى بين الذكر والأنثى ، وأن معظم اتصاله
على أى حال كان بالذكور . والحقيقة التى تم اتضاحها هى أنه ذو
سلوك جنسى شاذ ، وأول سؤال يبدر إلى أذهاننا هو : ما سبب هذا
الشدوذ فيه ؟ أكان شدوذا طبيعيا أم كان شدوذا مكتسبا ؟ نعى
هل اندفع إليه نتيجة التواء فى طبيعة تكوينه ، أو ولدته فيه ظروف
نشأته ومناسبات بيئته وأحداث حياته ؟

هذا سؤال لا نستطيع أن نناقشه مناقشة مجدية إلا إذا ميزنا بين
أنواع ثلاثة من الشذوذ الجنسى ، نوع منها يسببه التكيف مع الجسمانى
الخاص للفرد ، ونوع تنتجه عوامل نفسانية ، ونوع ثالث تنتجه
الظروف الاجتماعية ، ونحن نحتاج إلى قدر مناسب من العلم بهذه
الأنواع الثلاثة قبل أن يحق لنا أن نعرض لشدوذ أى نواس ونحاول

استكشاف أسبابه . لذلك نستأذن القارىء في استطراد نلم فيه بأهم الحقائق المتصلة بالموضوع ، فإن كان يعرفها فلعله لا يبرم بنا في إعادة كما يقولون إفادة .

عوامل التكوين الجسماني
أما الشذوذ الذي تسببه أسباب جسمانية ، فلعل خير ما نفعل لكي نفهمه فهما صحيحا ألا نسميه « شذوذا » بل نسميه « توقفا » . فصاحبه لم يشذ عن سائر الناس بمعنى أنه يفعل شيئا لم يفعلوه قط ، بل هو قد توقف في مرحلة من مراحل النمو الجنسي نمر بها جميعا ولم يستطع أن يتطور عنها إلى المرحلة التالية كما يفعل باقينا ، بسبب خلل أصاب تكوينه الجسماني .

فكل فرد يمر باطوار ثلاثة في نموه الجنسي منذ أن يولد ، أولها طور الحب الذاتي ، وفيه يحب الطفل نفسه ويلتذ بجسمه . يحب العرى ، ويجب أن يلبس جسمه ويتعشقه ، ويلتذ بمصر أصابعه ، ويحك فخذه حتى يتبول ويجد في هذا لذة شديدة تقابل لذة الاستمنااء عند البالغين . ثم يتطور الطفل عن هذه المرحلة إلى المرحلة التالية لها ، وفيها يحب فردا آخر ، ولكنه من نفس جنسه ، ذكر أو أنثى إن كان ذكر أو أنثى . وفي هذه المرحلة نجد الصبيان فيما يسمى « طور العصابة » ، فيكونون مجموع من الذكور تلعب منفردة عن البنات ولا تسمح لهن باللعب معها ويحتقرون البنات احتقارا شديدا . كما تكون الصبيات عصابة من الإناث ويزدرين البنات التي تلعب مع الصبيان .

ثم ينتقل الفرد إلى الطور الأخير ، وفيه يجب فردا من الجنس
المضاد ، فيحب الفتى فتاة وتميل الفتاة إلى فتى .

كلنا يمر بهذه الأطوار الثلاثة ، ومعنى هذا ان بكل منا قدرا
طبيعياً من حب ذاته ، ومن حب نفس الجنس ، ولكن معظمنا
يتطورون إلى المرحلة الأخيرة ، ونحن نختلف في سرعة الانتقال من
مرحلة إلى أخرى ، فبعضنا يطيل الوقوف بهذه المرحلة أو تلك ،
وبعضنا يمر بها سريعاً ، ولكن أغلبنا على أى حال ينتهى إلى الطور الأخير
فيصير رجلاً عادياً ، أو امرأة عادية .

ولكن أفراداً منا سيئى الحظ يقفون بأحد الطورين السابقين فلا
ينتقلون منه إلى ما يليه ، فيظلون طول حياتهم لا يجدون لذة جنسية
إلا بتعشق أجسامهم ، أو بمواصلة أفراد من نفس جنسهم . فكيف
يحدث هذا التوقف ؟

الجهاز الجنسى مرهف بالغ اللطف دقيق التوازن ، قد يؤثر فيه
أهون مؤثر فيحدث به اضطراباً أو يحدث فيه انقلاباً تاماً ، هو كميزان
دقيق زائد الارهاق أقل تأثير قد يحدث اضطراباً بكفئته . وليس
الغريب ان بعضنا يضطرب نموه الجنسى ، بل الغريب ان هؤلاء
قليلون وأن معظمنا يمر بسلام من طور إلى طور فى نموه .

والسبب الاصلى ان الطبيعة لم تفصل تمام الفصل بين عناصر
الذكورة وعناصر الأنوثة فى أى واحد منا ، فكل ذكر به قدر من

عناصر الأنوثة ، وكل أنثى بها قدر من عناصر الذكورة . فإذا حدث اضطراب من شأنه أن يغير من نسبة هذه العناصر بالفرد ، مثل اضطراب في إفراز الغدد الجنسية ، اضطربت حالته الجنسية ، إذ تزيد فيه العناصر المخالفة لجنسه الغالب عن النسبة العادية . بل قد يبلغ من هذا الاضطراب أن يقلب جنسه قلباً تاماً . وهذا يحدث بين الحيوان ويستطيع العلماء أن يقلبوا جنس بعض الحيوان بتغيير نسبة الهرمونات . ويحدث أحياناً لدى الإنسان فنسمع بفتاة تتحول إلى قتي أو العكس حدوثاً مفاجئاً من تلقاء نفسه ، أو يساعده الجراحون بعملية بسيطة .

فالفرد الذي يقف في مرحلة الحب الذاتي أو مرحلة حب نفس الجنس قد حدث له اضطراب جسماني أوقفه في هذه المرحلة فعجز عن الانتقال إلى المرحلة التالية . ويؤيد هذا أن تكوينه الجسماني كثيراً ما يكون أقرب إلى تكوين المرأة ، في عظام الحوض ، وضخامة العجز والأوراك ، وتوزيع الشعر على أجزاء الجسم المختلفة ، وسحنة الوجه الأنثوية ، ورقة الجلد ونعومة الصوت .

معنى هذا أن هذا النوع من الشذوذ الجنسي مرض طبيعي ، أو عاهة طبيعية لا ذنب للفرد فيها ، فهو كمن يولد أعمى لم تستوف فيه آلة الإبصار نموها ، أو يولد بأى عاهة طبيعية أخرى لا يلام هو عليها . فالشذوذ الجنسي الذي ينجم عن اضطراب طبيعي بالجسم خليق بأن

يحملنا على الرثاء للفرد المصاب والأسف عليه لاعلى الاستنكار والذم وإصدار الحكم الخلقى ضده ، وهذه الأحكام على أى حال لا جدوى منها فهي لن تصده عن التوائه . ولو عرف الناس هذا لتجنبنا الإنسانية كوارث كثيرة وظلما عظيما ينزله الناس بذوى الشذوذ الطبيعى ظنا منهم أنه جريمتهم وأنهم يسلكون سلوكهم الشاذ مختارين .

هل يمكن علاج هذا الشذوذ الطبيعى ؟ من سنتين اثنتين كان العلماء يقولون : إن العلاج مستحيل ، ولذلك نقلت هذا التقرير فى كتاب سابق لى (١) نشر من أربع سنوات ، فقلت أنه « مرض طبيعى يستحيل علاجه » . ولكن فى سنة ١٩٥١ دارت مناقشة طويلة بين بعض الأطباء والنفسانيين البريطانيين (١) ، اتضح فى نهايتها أن القول بالاستحالة المطلقة ليس صحيحا ، ففى بضعة أحوال قليلة أمكن علاج الالتواء الطبيعى بالتغذية الهرمونية وبوسائل أخرى . ولكنها أحوال قليلة جدا ، والعلاج بالغ الصعوبة باهظ الغلاء . فلا زلنا نستطيع ان نقول ان علاج الشذوذ الطبيعى ان لم يكن مستحيلا فهو نادر الحدوث عسير التحقيق .

هذا رأى العلماء المختصين ، وعلينا ان نقبله ، فنسلم لهم بأن الشذوذ

(١) ثقافة الناقد الادبى . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٩ ص ١٠٧-١١٩ . ويستطيع القارئ ان يرجع الى هذا الفصل ان احبان يزداد فهما بالاختلالات الجنسية .

(٢) انظر اعداد مجلة « نيوسيتسمان » لشهور سبتمبر واكتوبر ونوفبر ١٩٥١ .

الجنسى الطبيعى ليس من ذنب المصاب فلا عليه مسئولية أخلاقية ولا يجدى عقابه . ولكن عددا من الكتاب يستغلون هذه الحقيقة ليقرروا أننا يجب علينا إذن ان نترك هذا المصاب يفعل ما يشاء ويحقق رغبته الجنسية بالطريقة الوحيدة التى يستطيعها مغمضين العين عن سلوكه . وهذا منهم فى اعتقادى إسراف لا يقبل ، نسلم بأن هذا المسكين لا ذنب له فيما ابتلى به ، ونسلم بأنه لا يستحق العقاب وبأن العتاب على اى حال لا فائدة منه . ولكن ما ذنب المجتمع حتى يطلب اليه ان يتحمل هذا السلوك الشاذ الذى يحدث به فسادا كبيرا واعتداء على الغلمان الأبرياء وزعزعة لعدد من أهم مقاييسه الخلقية ونظمه الاجتماعية ؟

نسلم بأن المجذوم مثلا لا ذنب له فى جذامه ، وبأن من الظلم والحقاقة أن يعاقبه القانون عليه ، ولكن ما ذنب المجتمع حتى يطلب إليه أن يتحملة وأن يتركه يمرح طليقاً بين جوانبه ينشر مرضه الذريع ويعدى غيره من الأبرياء ؟ بل للمجتمع الحق كل الحق ، لافى العقاب ، بل فى العزل . وقل نظير ذلك عن ذوى الشذوذ الجنسى ، للمجتمع الحق فى أن يعزلهم بمنأى عنه وأن يقيد من حريتهم بما يمنع تأثيرهم الضار من أن ينتقل إلى غيرهم .

أضف إلى ذلك أن الاضطراب الطبيعى ليس السبب الوحيد للشذوذ الجنسى ، فهو لا يسبب إلا حالات قليلة منه ، ومعظم الشاذين لا يصدر شذوذهم عن التواء جسمانى لا يمكن علاجه أو يعسر ، بل

يصدر عن أسباب نفسانية أو اجتماعية يستطيع إصلاحها ويمكن
تلافيها ، وهذا ما نحاول الآن أن نبينه .

فالنوع الثاني من الشذوذ ينشأ عن عوامل نفسانية ، أهمها تربية
خاطئة ربيها الطفل في صغر سنه فجرته إلى السلوك الشاذ إذ كونت فيه
عقدة نفسانية صعبة ضد مواصلة النساء ، ولو لقي تربية سديدة حكيمة
لما انساق في هذا الطريق الملتوى .

فمن ذلك اسراف الأم في تدليل طفلها . صحيح أن هذا الطفل
يكون بطبيعة تكوينه ذا حساسية مرفهة ، ولكن لولا تدليلها له
تدليلاً مفرطاً وإغراقها إياه في لجج من الحنان الكاذب لما التوى .
فهذه الأم الجاهلة أسرفت في احاطته بحنانها حتى خنقته بهذا الحنان
خنقاً ، تريده أن يظل طول حياته متشبهاً بأهداب « فستانها » كما
يقول المثل . وكثيراً ما يكون هذا الطفل وحيد أمه ، أو يكون
الذكر الوحيد في أسرة كل أطفالها الآخرين أناث ، أو يكون أصغر
أخوته . وكثيراً ما تنشئه أمه تنشئة البنت . فتطيل شعره وتلبسه
ملابس البنت وتخطبه بضمير التأنيث . فحين يشب هذا المسكين يشب
ضعيفاً عظيم الميوعة فيسقط فريسة سهلة للغاصبين من الرجال .

وفي أحوال أخرى تمنعه أمه من مصاحبة النساء لغيرتها الشديدة
عليه وإبائها أن تتودد إليه اثى غيرها ، فيظل شديد الهيبة للجنس
الآخر ينفر من الأناث ويذعر من صحبتهن ولا يجد راحته وأمنه إلا
في مصاحبة الرجال .

ومن الغريب أن الشذوذ النفساني قد ينشأ عن عكس السبب ،
عن إهمال الأم لولدها وعدم تقديمها إليه ما يحتاجه من الرعاية والحب ،
إما لأنها تعشق أباه عشقاً شديداً ، أو لأنها طلقت من أبيه أو أرملت
فزوجت غير أبيه . وجميعنا بنا غير جنسية على أمهاتنا كما استكشف
علم النفس الحديث ، وأمثال هذه الأحداث قد تزيدها استعاراً فتبلغ
حداً طاعياً ولا يستطيع الولد أن يتخلص منها طول حياته ، فتكون
سبب نفوره عن جميع النساء .

وفي كل هذه الأحوال يتعلق الطفل بأمه تعلقاً شديداً ، وحين
يشب يعجز عن التخلص من هذه العلاقة^(١) والاستواء على قدميه
والاستقلال بشخصيته واستكمال رجولته ، ويبقى طول حياته يحن
إلى الأم ويتوق إلى حمايتها ، فتكرهه هذه العقدة في سائر النساء
وتعجزه عن مواصلاتهن بالمواصلة الطبيعية بين الرجل والمرأة .

وربما لا ينتج الشذوذ عن مسلك الأم ولكن من أثر أب زائد
القسوة عظيم السيطرة ، ويكون الطفل رقيقاً حساساً بطبعه ، فيخاف
أباه الفظ الغليظ خوفاً شديداً ، ثم يحول خوفه هذا من شخص معين
هو أبوه إلى صفة « الذكورة » نفسها ، فيكرهها أشد كره ، ويسعى في
أن يتجرد هو منها فيحول نفسه بالتدريج إلى مخنث . فإن عقله الباطن

(١) تسمى رابطة الأم mother-fixation

قد رفض أن يلعب دور الذكر في الحياة وآثر أن يلعب دور الأنثى
الرقية المستسلمة .

وهناك أخيرا أسباب نفسانية أخرى قد تنفر الشاب من صحبة
النساء ، وهى خوفه الشديد من أن يصاب بالأمراض السرية ، أو فشله
في تجربة واحدة مع النساء فأحس بالخزي والمرارة وكرههن ونفر
منهن وآثر باقى حياته أن يتصل بأفراد جنسه .

كل هذه عوامل نفسانية قد تسبب الشذوذ الجنسى ، وفى جميعها
لا يحدث الشذوذ عن التواء جسمانى وإنما يتولد عن عقدة نفسانية
صعبة تعجز المصاب عن الاستمتاع بالعلاقة المعهودة مع المرأة . فلننظر
الآن فى النوع الأخير من أنواع الشذوذ ، وهو الذى تسببه ظروف
اجتماعية معينة ، أى ليس المسئول جسم الفرد أو حالته النفسية بل
حالة المجتمع الذى يعيش فيه .

وهذه العوامل الاجتماعية لها ظواهر متعددة ، فأول ظاهرة نلاحظها
من هذا الصنف هى أنه فى بضعة احوال معينة يقتضى نظام المجتمع
أن يعيش عدد من الذكور مع بعضهم البعض مدة طويلة مفصولين
عن الأنثى ، والعكس ايضا يحدث فتعيش مجموعة من الفتيات مع
بعضهن البعض مدة طويلة مفصولات عن الذكور . واهم هذه
الأحوال ثلاثة : بين غلمان المدارس او فتيات المدارس حين يصلون
او يصلن طور المراهقة ، وبين جنود الجيش ، وبين المسجونين او
المسجونات فى سجون الرجال او سجون النساء .

لذلك يكثر الانحراف الجنسي في هذه الجماعات دائماً ، في كل أمة وفي كل عصر . ولكنها كما ترى حالة وقتية سببها حرمان كل من الجنسين من المصاحبة الطبيعية للجنس الآخر ، وخصوصاً حين يحدث هذا الحرمان في فترة عنيفة من النمو الجنسي كفترة المراهقة . وحين ينتهي هذا الظرف الخاص ، أى حين ينتهي الولد من مدارس البنين والبنت من مدارس البنات ، وحين يخرج السجين أو السجينة من السجن ، وحين يتم المجدد فترته العسكرية ، يعود كل منهم إلى مجرى الحياة الطبيعي المختلط فتنتهي أعماله الشاذة ويعود كما هو في صميمه فرداً عادى السلوك .

فأثر هذه الحالات وقتي في الأغلب . ولكن في بعض الأحيان يستمر هذا الأثر وينشأ تقليد من الشذوذ الجنسي يبقى طويلاً بعد انقضاء الحالة الخاصة التي أحدثته .

ولنضرب على ذلك بضعة أمثلة . انتشر اللواط بين الجنود في جيوش نابليون العظيمة التي فتح بها أوروبا ، وحتى بعد انتهاء عصره وانحلال جيوشه بقي تقليد الشذوذ الجنسي بين الرجال الفرنسيين زمناً طويلاً ، حتى أن بعض الباحثين يعتقدون أن هذا التقليد موجود إلى يومنا هذا ويرون أنه سبب ما يلاحظ في فرنسا المعاصرة من سهولة الشذوذ بين الرجال وتسامح الرأي العام إزاءه وتساهله في النظرة إليه وخصوصاً إذا قارناه بالرأى العام في بريطانيا مثلاً .

انتشر الانحراف أيضاً في الجيوش العظيمة التي جندها غليوم امبراطور ألمانيا ، ثم بقي أثره طويلاً في ألمانيا بين الحربين العالميتين

حتى أنه في العشرينيات من القرن الراهن كان وجود العاهر الذكر من أبرز مظاهر الحياة الليلية في برلين .

ثم نشأ عن الحرب العالمية الأولى وقتلها الملايين من رجال ألمانيا أن زاد عدد الإناث على عدد الذكور زيادة كبيرة فانتشر الانحراف في نساء تلك الأمة .

ومن هذا الصنف أيضاً ما تجده في تاريخ القرون الوسطى في حياة الأديرة من انتشار الشذوذ بين الرهبان لما ضعف تأثير الدين وكان نظام حياتهم يحرم عليهم الزواج فلجأوا إلى ذلك المسلك الشاذ . وكذلك ما حدث في تاريخ أمريكا الحديثة فيما يسمى « هجرة الذهب » حين تقاطر ألوف الرجال على الهجرة إلى موطن الذهب المستكشفة وكانوا في الغالب لا تصحبهم نساؤهم .

والخلاصة أنه في الأحوال الاجتماعية التي يعيش فيها أفراد من جنس واحد مدة طويلة مفصولين عن أفراد الجنس الآخر تنشأ دائماً ظاهرة الشذوذ الجنسي وتنتشر ، ولكن أثرها الغالب وقى يزول بزوالها وإن كان أحياناً يبقى زمناً طويلاً بعد انتهاء الحالة التي أنتجته .

والآن نأتي إلى نوع آخر من الظروف الاجتماعية التي يشيع فيها الشذوذ الجنسي . وفي هذا النوع لا ينشأ الشذوذ عن انفصال الذكور والإناث مدة طويلة ، بل ينشأ عن بدء انحلال حضارة ما من الحضارات الإنسانية .

فحين تصل حضارة ما إلى طور نضوجها ثم تبدأ في الانحلال ،
تجد المجتمع يصاب بآفات خلقية كثيرة منها انتشار الانحراف الجنسي .
أسباب ذلك متعددة منها اضطراب المقاييس الخلقية ، وانتشار الشك
والاستهانة بالتقاليد الموضوعة ، حتى لا يميز الكثيرون بين صحيحها
وزائفها فيتحدونها جميعاً ، ووصول الترف والتنعيم إلى أقصاه بسبب
الغنى الواسع وهدوء أحوال الدولة وزوال أخطارها ، فيلجأ بعض
المترفين إلى تجربة أنواع جديدة من اللهو واستكشاف فنون مختلفة
من اللذة .

ولذلك نلاحظ ذبوع الشذوذ في كثير من الحضارات الانسانية
التي عرفها التاريخ . نلاحظه مثلاً في الحضارة المصرية القديمة ، حتى
وصل الأمر أن نسب قدماء المصريين الشذوذ إلى بعض آلهتهم ،
ومعنى هذا أنهم قدسوه وأعطوه صبغة إلهية . ونلاحظه في الحضارة
الآغريقية ، حتى أن الإغريق لم يساحوا الشذوذ فقط بل احتراموه
وأجلوه فجعلوا حب الرجل للرجل هو الحب المثالي ووضعوه مرتبة
أرفع من حب الرجل للمرأة وعدوا هذا حباً عادياً لا امتياز فيه ،
ولذلك يسمى ذلك النوع من الحب « الحب الإغريقي » Greek Love
وانتشر الشذوذ أيضاً في أوروبا في عصر النهضة ، وبلغ من تردي
الشخصيات الكبيرة فيه أن احتاج دانتى في « الكوميديا الإلهية » إلى
أن يخصص جزءاً كبيراً منها لوضعهم في النار ، فعرض للعلماء
والأدباء في كاتو رقم ١٥ وللمحاربين والسياسيين في كاتو رقم ١٦ .

كما أن الأمر كما ذكرنا في فرنسا المعاصرة التي يغلب على الظن أن حضارتها في طور انحلال .

وهذا يقودنا إلى الظاهرة الأخيرة التي نريد دراستها في هذا الموضوع ، وهي انتشار الشذوذ الجنسي بين طبقات الفنانين .

الحقيقة التي يشهد بها التاريخ هي أن عدداً كبيراً من رجال الفن ، من شعراء ودراميين ، وموسيقيين ومغنين ، ورسامين ومثاليين ، وغيرهم من الفنانين ، كانت بهم غرابة جنسية . إما أن حدثهم الجنسية كانت أعظم بكثير مما عند الناس العاديين ، فتهالكوا على النساء بافراط زائد ، وإما أن هذه الحدة المتطرفة لجأت إلى وسائل شاذة عجبية الالتواء لأشباعها .

لم حدث هذا ؟ قد تكون أسبابه متعددة ، منها البيولوجي ومنها النفساني ومنها الاجتماعي . فالكثيرون منهم يبدو أنهم مضطربون في طبيعة تكوينهم ، بل ربما يحق لنا أن ندعى أنه لولا اضطرابهم هذا لما كانوا يمتازون في الفن . والفنان على أي حال عظيم الحساسية مرهف الأعصاب ، ومظهر من مظاهر هذا الارهاق أن الحاسة الجنسية عنده أحد مما لدى الناس العاديين ، ولذلك هي أكثر تعرضاً للاضطراب والالتواء . أضف إلى ذلك ما يصادف بعضهم من ظروف خاصة في طفولتهم ، ونوع الأوساط الفنية « البوهيمية » التي يعيشون فيها ، وهي أوساط تخالف الكثير من تقاليد المجتمع وتتحدى

الكثير من مقاييس الأخلاق التي يطيعها الآخرون ، وكثيراً ما تجمع في هذا التحدى حتى ترتكبه لذاته .

هذا ويظهر أن هناك ارتباطاً قوياً بين الحاسة الفنية والحاسة الجنسية ، فإذا اشتد توتر الأولى زادت هذه الثانية حدة ومالت إلى الاضطراب . والنتيجة التي لاشك فيها هي على أى حال ما تؤكده دراسة عطاء الفن ، أن الكثيرين منهم شذوا في سلوكهم الجنسي ، لا نقول كلهم ، فهذا غير صحيح ، ولا نقول معظمهم ، فهذا يحتاج إلى إثبات احصائي لا سبيل لنا إليه . وإنما نقرر مطمئنين ان حكمنا ينطبق على عدد عظيم منهم في كل التاريخ الثقافي للإنسانية ، من سقراط إلى أندريه جيد ، ولا نتحدث عن الأحياء فالحديث عن الأحياء غير مقبول .

يقول الاستاذ كنهث ووكر في كتاب مبسط عن حقائق الجنس (١) :
« بعد النهضة الأوربية ازدهر الشذوذ الجنسي ، وكان السبب الأكبر في هذا الازدهار انه انحرف ينزع إليه المثقفون والفنانون . فبعض الاسماء العظمى في سجل الشهرة الفنية أسماء أفراد استمتعوا بنفس جنسهم . وفي هذه الطبقة من الأفراد لا يزال الانحراف شائعاً إلى

(١) ص ١٢٨ طبعة يليكان Kenneth Walker : The Physiology of Sex.

يومنا هذا . وقد قال هافلوك اليس ان الموهبة الفنية يختلف صنوفها ،
وكذلك حب الموسيقى ، توجد في عدد كبير من الملتوين المتعلمين
يقدر نسبته بثمانية وستين في المائة .»

والاستاذ ووكر طبيب وعالم بيولوجي . فلننظر الآن فيما يقوله
بعض رجال الأدب والفن أنفسهم . ففي كتاب للروائي الانجليزي
العظيم سمرست موم يسجل فيه خلاصة تجاربه ومشاهداته في حياته
الطويلة (١) ، يقول في الفصل العشرين : «ان الحاسة الجمالية لها ارتباط
كبير بالغريزة الجنسية ، وتشهد على هذا الحقيقة التي يسلم بها عموما
وهي ان أولئك الذين يمتلكون حاسة جمالية ذات ارهاف ممتاز
ينحرفون في سلوكهم الجنسي عن السلوك العادي إلى درجة باثولوجية» .

وفي رواية مشهورة للروائي المفكر المعروف الدوس هكسلي (٢)
« هناك عدد كبير من الناس ، وهم في العادة أكثر الناس ثقافة وتحضرا
وتهذيب ذوق وبراعة ذكاء ، ينزعون إلى الانحطاط ويفعلون كل
ما من شأنه أن يلحق بهم الضعة والزراية . في مبادل جاححة التهتك
وتعهر مفرط القسوة على النفس ومصاحبة عابرة لأفراد غلاظ من
الطبقات السفلى . فالتهذيب الثقافي والجمالي المفرط قد يشتري بثمن باهظ من

Somerset Maugham : The Summing Up.

(١)

Aldous Huxley : Point Counter Point.

(٢)

الانحطاط الغريب في طريقة التنفيس عن الانفعال». ثم ينسب إلى أحد أشخاص الرواية هذا الحكم «عقل رفيع وكشع وضيع ، كلما سما أحدهما انحط الآخر».

وفي أوروبا المعاصرة كثيرون ممن لا يقتصرون على تسجيل هذه الظاهرة عن الفنانين الممتازين ، بل ينادون بأن يقتفروها لهم المجتمع ويضمض العين عنها لقاء ما يؤدون إليه من خدمات جليلة . نكتفى بأن نذكر منهم الناقد الفني كلايف بل . وهو رجل يخالفه الكثيرون في آرائه عن فن الرسم ولكن يجمع الكل على ثقافته وإرهاق ذوقه الفني . فهذا الكاتب يدرس في مؤلف له مقومات الحضارة (١) ، ما الصفات التي تتحقق في مجتمع ما فتجعله متحضرا . فيشير في كتابه إلى هذه الحقيقة ، ان عدد عظماء من رجال الفن أغرم بالذكور . ثم يعلن رأيه أنهم يجب أن يساحوا وأن يدع لهم المجتمع نوع معيشتهم الشاذ كضريبة يؤديها إليهم نظير أياديهم الطولى عليه .

ولكن بعض الفنانين لا يكفيهم هذا ، لا يقنعهم ان يسلموا بأن شذوذهم نقيصة يعترفون بها ويرجون صفح المجتمع عنها ، بل يأخذهم العناد فيحاولون تبريره والدفاع عنه ، فهم لا يعدونه عارا يخجل منه أو ذنبا يعتذر عنه ، بل يعتبرون شذوذهم مظاهرا فنيا رفيعا لسموهم على البشر العاديين وامتيازهم على الدهماء . ثم يسترسلون فيعدون

الاتصال بالنساء شيئاً عادياً مبتذلاً لا امتياز فيه يفعله السوق وعامة الناس كما يتصل الحيوان الذكر بالحيوان الانثى . ويجدون في اتصالهم بالذكور لذة فنية رفيعة وفي صحبتهم لهم صداقة روحية نبيلة سامية . وقد سمعنا الكثيرين منهم يطرقون هذا الباب منذ فلاسفة الإغريق ويدعون انهم يأتون نوعهم من التلذذ الجنسي مختارين لا مضطرين ، لأنهم يفضلونه على اللذة العادية الرخيصة المبتذلة بين الرجال والنساء . ولعل أقواهم دفاعاً في عصرنا الأديب الفرنسي العظيم أندريه جيد . فقد وضع أندريه جيد كتابه « كوريدون » (١) للدفاع عن حب الغلمان . وفيه ينفي أن هذا الحب شذوذ أو التواء ويحاول أن يثبت أنه حب جميل نبيل مليء بالعواطف الرائعة وآيات المروءة والنبيل والتضحية وإنكار الذات في سبيل الغلام المحبوب ، وقد عرف به عدد من أنبل الرجال وأذكاهم وأكثرهم وقاراً وجلالاً ، وإنما هو المجتمع بتقاليده الكاذبة ونفاقه البغيض يضحطه ويعدده شاذاً وضيقاً منكراً . وينفي أنه يذيع في فترات الانحطاط ويدعى أنه ينتشر في أوج ازدهار الحضارة كما حدث بين الإغريق زمن بركليس والرومان زمن أوغسطس والإنجليز زمن شكسبير والطلليان زمن النهضة والفرنسيين زمن النهضة

(١) Andre . Gide ; Corydon وقد نقلنا عن الترجمة الإنجليزية المطبوعة في لندن سنة ١٩٥٢ - ونحن مدينون لزميلنا الأستاذ سعد الدين اسماعيل فوزي بلفت نظرنا إلى هذا الكتاب .

ثم في حكم لويس الثالث عشر والفرس أيام حافظ الخ . وفي هذه العصور الراقية كان حب الغلمان علناً ومقبولاً قَبُولاً رسمياً .

وإنما أطلنا في شرح رأيهم لأنه يعبر عن وجهة نظر شاعرنا العربي . فأبو نواس حاول أيضاً أن يبرر شذوذه بأنه شيء جميل مهذب متحضر أنتجته الحضارة العباسية الراقية ولم يكن يعرفه العرب الجاهلاء إلا جلاف ذوو الفظاظ والخشونة . وتري هذا في رأيته :

الربيع
ص ٥٥٩

دع الرسم الذي دثرا يقاسى الريح والمطرا
وفيها يدعو إلى الأخذ بأسباب المدنية الجديدة والتنعيم بنعمها
المبتدعة ، ويعد من هذه النعم الرقيقة المهدبة حب الغلمان ، حتى يدعى
انه لو عاد الشاعر الجاهلي القديم المرقش إلى الحياة لترك الغزل بالنساء
وجنح إلى حب الذكور .

ولعل خير وسيلة لمناقشتهم أن نبدأ بادعائهم أنهم يسلكون
مسلكهم الشاذ مختارين لأنهم فكروا فوجدوه أسماً وأروع . فهل
يأتونه مختارين حقاً ؟ بل هي تلك الأسباب المتنوعة التي شرخناها .
من اضطراب التكوين الطبيعي ، أو المرض النفساني ، أو عدوى
البيئة البوهيمية ، أصيبوا بأحدها أو بجميعها فلوت سلوكهم عن الطريق
الطبيعي المقبول . وما أن ندرك هذه الحقيقة حتى ندرك حقيقة دفاعهم
الطويل ، فهو كله « تبرير » بالمعنى النفساني الدقيق لهذا الاصطلاح (١) .

هي محاولة هسترية يحاولون بها أن يزينوا لأنفسهم - قبل أن يزينوا
لغيرهم - مرضهم الوييل الذي ابتلوا به . فحديثهم في تفضيل الظلمان
على النساء يذكّرنا بالشغب الذي عجز عن الوصول إلى العنب فادعى
أنه حامض ، أو ذلك الآخر الذي فقد ذيله فحاول أن يغري زملاءه
بأن يقطعوا ذيولهم لأن شكلها قبيح .

لسنا ننكر أنهم يجدون في نوع تلذذهم نشوة لا يجدونها في النوع
المشروع ، ولكن هذا نفسه إنما نشأ عن التوائهم وعجزهم عن أن
يحققوا في الاتصال الطبيعي بين الجنسين ما يحققه الناس الصحيحو
التكوين المعتدلو المزاج .

☆ اسباب شذوذ *** نواس

نستطيع بعد هذا العرض لأسباب الشذوذ الجنسي أن نأتى إلى
شذوذ أنى نواس فنحاول استكشاف منابعه . أكان شذوذاً باثولوجياً
نشأ عن اضطراب تكوينه الجسماني منذ بداية خلقه ؟ أم كان التواء
نفسانياً سببته تربيته وأحداث طفولته ؟ أم نمت فيه الظروف الاجتماعية
التي شاعت في عصره ؟ أم تعاون أكثر من واحد من هذه العوامل
على إحداثه وإبرازه ؟

في وسعنا أن ندعى أن شذوذه كان اضطراباً جسمانياً في طبيعة
تكوينه ، وأن نسوق على هذه الدعوى شواهد وجيهة . أولها
ما نقله القدماء من وصفه الجسماني ، يصفون رقة بشرته ونعومة

جسمه ودقة أطرافه ، ويصفون جمال وجهه ورشاقة حركاته ، ويصفون
عموما حسن بدنه ولطف قده . ويذكرون قصصا شتى عن افتتان
الناس بجماله في حديثه . وقد يجوز لنا أن نرى في كل هذا الوصف
طبيعة أنثوية واضحة .

وقد نستطيع أن نعزز هذا بما يروى عن حديثه من قصص كثيرة
تشهد بأن التواء ظهره في سن مبكرة ، ويبدو منها أنه أساس قيادة
لمعظم من طلبوه بسهولة غريبة وبلا تمنع . وأنه هو أيضا افتتن
بالغلمان الملاح في هذه السن المبكرة . أنظر القصص التي تروى عن
هذا الطور في أخبار ابن منظور من الصفحة السابعة إلى الصفحة
الثانية عشرة .

وفي صفحة ٤٩ من ابن منظور أيضا قصة تدل على مطاوعته في
حديثه . وفي أولها هذه الجملة « فاذا نحن بغلام من أحسن الناس وجها
وأحسنهم قدا وهويتنى . تأمل في قول الراوى « وهو يتثنى » .

ومن الطريف أن نلاحظ في هذا المجال أن القصص التي تروى
عن بدء اتصاله بالوبة يقرر بعضها أن أبا نواس طالما تشبه لقياه ،
وأنه كان عازما على الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجله . أنظر
ابن منظور ص ٨ والجزء الرابع من ابن خلكان ص ١٩٢ . بل
هناك روايات تقرر أن أبا نواس هو الذى ذهب إلى والبة وتقرب

إليه وقدم إليه نفسه ، أنظر ابن منظور ص ١١ . وهذا كله يدل على أن والبة لم يكن البادئ بإفساده ، بل ربما كان لديه نزوع طبيعي إلى هذا السلوك قبل أن يلقاه .

كل هذا الشواهد قد تعزز قولنا لورجينا أن الأصل في شذوذه التواء جسماني في أجهزته الجنسية أو الغدية ، ولكننا لن نستند على هذا التعليل ، فليس في كل مامر قوة الدليل القاطع الملزم بالاقناع ، وجميعه لا يزيد عن قرائن وجيهة ، وليس أبو نواس بين أيدينا حتى ندفع به إلى عالم باثولوجي أو طبيب ليفحص أجهزته ، والذي لا شك فيه على أي حال أننا نستطيع أن نجد في ظروف نشأته ونوع تربيته وأحوال عصره تعليلًا كافيا لشذوذه ، وهذا ما نتطرق الآن إلى شرحه .

فأول ما يجب أن نلاحظه في هذا الشأن إرهاب حسه وتوتر أعصابه ، فهذه صفة نعرفها معرفة اليقين . ربما لا يكون أبو نواس قد ولد بشذوذ جنسي مستأصل في جبلته ، ولكنه من غير شك ولد رقيق التكوين مشحوذ الأعصاب بالغ الحساسية ، وإلام يكن الشاعر الذي نعرفه في حدة شعوره وسرعة تأثيره ودقة استجابته الشعرية لمؤثرات حياته . ومثل هذا الطفل المستوفز الاحساس يكون عظيم التأثير باحداث طفولته ، فصفحة نفسه غشاء بالغ الرقة تنطبع عليه تجاربه العاطفيه انطبعا عميقا وتهز كيانه الروحي هزا عنيفا . فأى أحداث حدثت له في صباه ؟

توفى والده وهو لا يزال طفلاً صغيراً ، فنشأ لا يجد له أباً يرعاه
رعاية الأبوة ويمد له كنف الرجولة ويضع أمام عينه قدوة الذكورة
القوية المستقلة . ولم يكن له سوى أمه يهرع إليها ويلتمس في صدرها
الحماية والغوث . ومثله في رقة تكوينه وفرط حساسيته وسرعة
تأذيه يحتاج إلى قدر مضاعف من الحب والحنان والملاطفة .

ونحن لا نعرف هل أمدته أمه بما يحتاجه من العطف أو لا .
والتخمين في هذا المجال لا يجدي لأنه لا يسلم إلى أساس ثابت . فجدد
بنا أن نلتزم ما هو معروف منقول من أخباره . قد تكون أمه أعطته
كل ما ينبغي من الرعاية والحنان ، بل قد تكون أعطته أكثر مما يصلح
له وأسرفت في حبه وحمايته ، وهذا لا يكون غريباً من امرأة تفقد
بعلها فتصرف بكل أنوثتها المحرومة العطشى إلى ولدها اليتيم . وقد
تكون انصرفت عنه وأهملت تربيته وتلهت بشئون معيشتها وبالرجال ،
وهذا الفرض ليس غريباً كذلك ، وقد نجد له معزراً فيما يروى عن
اشتغالها بنوع من الصناعة اليدوية ، من عمل الصوف ونسج الجوارب
والأخراج أو صنع الخيزران ، وفيما يروى عن اتصالها بالرجال حتى
تعدّها بعض الروايات قوادة فتحت بيتها لتعارف الجنسين . كلا
الفرضين جائز ، فلننتقل إلى الحدث الثاني العظيم ذي التأثير البين
في نفسيته وهو زواج أمه بعد زمن وجيز من رجل آخر .

وهنا نجد أنفسنا على أرض راسخة نستطيع أن نبني عليها ،

فسواء أ كانت أمه قبل زواجها الثاني قد أظلمته بما يحتاجه من الحنان ،
أم كانت لم تعطه من ذلك شيئاً ولهمت عنه ، فإن زواجها هذا قد حرم
الطفل الحساس حرماناً نهائياً من ملاذه الوحيد في طفولته الضعيفة
العاجزة . ولا شك أن هذا حدث يضطرب له اضطراباً شديداً ويجزع
منه جزعاً ميمتاً . فمثله لا يطيق أن يشركه في حب أمه رجل آخر ، بله
رجلاً أجنبياً عنه .

وهكذا ييأس من أمه اليأس التام ، وينقطع أى أمل قد يكون
استبقاه فيها ، والطفل العادى إذا انتزعت منه أمه بهذه الوسيلة أحس
قدر أعظم من السخط واعتقد أنه قد ظلم ظلماً بشعاً وانتزع منه شئ .
يمسكه وله فيه الحق الأوحى ، فما ظنك بطفل كأبى نواس . . .

إلا أن السخط والشعور بالظلم ليسا كل شئ ، فإن الطفل يحس
بغيرة شديدة آكلة ، نعى الغيرة الجنسية من هذا الرجل الغريب الذى
يستحوذ على والدته ، فاذا عرفنا أن الطفل العادى يحس بالغيرة على
أمه حتى من أبيه ، أدركنا مقدار الغيرة المستعرة التى يحسها كل طفل
ضد رجل أجنبى يخلف أباه فى مضجعه الزوجى .

أما طفل فهو « هاملت » صغير فى شعوره نحو زوج أمه ، وفى
شعوره نحو أمه نفسها . ولكن أبانواس لم يكن أى طفل وكفى ،
بل كان طفلاً ممتاز الحساسية زائد الحدة العاطفية عن القدر العادى .
لا غرو أن يكون إحساسه بالغيرة إحساساً مضاعفاً . وهذه الغيرة
الواخزة هى التى ستنفره عن جميع النساء .

فهو يحس باشمزاز شديد كلما فكر في العلاقة الجنسية بين الرجال والنساء . مجرد هذا التفكير يملؤه بالاستنشاع والكراهية ، وسبب هذا أنه يتمثل أمه «الخاتنة» في كل أنثى يلقاها ، ولقد ينسى هذا الكره حيناً أو يحاول أن يتغلب عليه ، فيحاول أن يتصل بامرأة ، ولكن ما إن تواجهه أنوثتها حتى يشور اشمزازه على أشده وأعنفه ، فيتبخر كل شبقه وينصرف عنها ، إلا أن تسمح له بأن يواصلها مواصلة الذكور .

وشعور الاشمزاز هذا هو الذي يكمن من وراء أشعاره الكثيرة في ذم الأنثى وتقبيح وصالها . فإن عدنا إلى تلك الأشعار وجدنا شعور الكراهة والاستنشاع هذا واضحا قويا ، وإنما نحتاج إلى قدر من التأمل كيما نتعرف سببه الحقيقي .

أما هو فيدعي أن سبب كرهه للنساء هو حيضهن ، وانه يفضل الغلمان لنقايتهم من هذا الدنس ، ولأنهم لا يصابون بالحبل

لا ابتغى بالطمث مطومة ولا أبيع الظبي بالآرب
لا أشتهي الحيض ولا أهله غيرك أشهى منك في المركب

أيسر ما فيه من فضائله أمنك من طمته ومن حبله
ولكننا إذا اقتصرنا من هذه الأسباب على ظاهرها لم نجد لها

مقنعة . فليس من يضطره إلى وصال النساء في وقت طمئن الحدود .
وخوف الحبل احتجاج ضعيف وخصوصا في مثل عصره ، فما كانت
القيان المعربدات يصدهن أو يصد الناس عنهن خوف الحبل ، وهذا
احتجاج لا يقنع على اى حال ضد الزواج الشريف الذى لا يجر الحمل
فيه عاراً ولا أذى ، ولا ضد التسرى المشروع المباح .

السبب الحقيقى إذن ليس الحيض فى حد ذاته ولا الحمل فى حد ذاته ،
وإنما يرمى إليه الحيض والحمل معا : الأمومة . وهو يفضل الغلمان ،
لا لنظافتهم ولا لأمنه العار والغرم معهم ، بل لعدم اقترانهم بفكرة
الأمومة .

وتزداد هذه الحقيقة جلاء حين نتأمل رعبه العظيم من العضو
الأنثوى ، وهو رعب يصل درجة عصبية عسيرة

لا أدخل الجحر يدى طائعا أخشى من الحية والعقرب

لست والله مدخلا أصبغى جحر عقرب

ولا تعليل لهذا الفزع المريع سوى أنه يقود إلى الرحم ، والرحم
رمز الأم الخائنة ، الأم التى حملته وحنّت على عظامه الصغيرة فى
بطنها الدافئ الآمن المريح ، ثم قذفت به إلى خضم الحياة القاسية
وأحلت آخر أجنيا محلّه فى الصلة العميقة السرية .

هذا إذن هو السبب الباطن العميق لنفوره من النساء وعجزه
عنهن ، أنه يتمثل في كل منهن تلك الأم ، فهن جميعاً خوانات يبذلن
أجسادهن مورداً موطوءاً يدنسه جميع الطارقين . أعد النظر في قوله :

طمعت في قحبة رب راج مخيب
قلت لما رأيته اذهبي انت واغربي
لست والله مدخلا اصبعي حجر عقرب
ابتغى لي مؤاجرا واذهي انت قحي
يتضح لك هذا الاشمزاز القوى والذعر العنيف . وتأمل في قوله
يهجو قينه :

ومظهرة لخلق الله نسكا وتلقاني بدل وابتسام
أتيت قوادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام
فيامن ليس يكفيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أظنك من بقية قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام
تر كيف يدفعه كرهه إلى التهمك القارس المسموم .

ولكن تأمل الآن في شاهدنا الأخير فهو أقواها ، وهو قوله
للجارية عنان :

إني لأهواك ، واني جبان أفرق من علمي بغدر القيان
يصلن من واصلنه خدعة بكسرة الطرف ومزح اللسان
لست أرى واصلك أو تحلفي ألا تخوني وتقي بالضمان
أو فذريني وصلي جاهلا يلقي من الغيرة فيك الهوان

هو كما ترى يهواها ، ويتوق إلى وصلها ، أى يتشوق إليها تشوقاً جنسياً ، ولكن فكرة واحدة تجعله يحب ويفرق ، وهذه الفكرة هي أنها ستسمح لغيره بجسدها ، وهو لا يطيق هذا الغدر ، و«الخداع» و«الخيانة» . فهو يشعر عليها بـ «الغيرة» المعذبة المهيينة .

والحق أن كل ما شاهدته من حياة القيان العابثة المتهتكة ضاعف من اقتناعه العميق بخيانة المرأة وتقلبها . وهنا نعطي ما نعتقد أنه التفسير الصحيح لقصته المشهورة مع جنان .

اختلف القدماء والمحدثون في حبه لها . فبعضهم رأى أنه كاذب متكلف لا يخرج عن التعابت والهزل ، وبعضهم بالغ في هذا الحب حتى جعله الحدث الأعظم في حياته وجعل فشله فيه الكارثة الكبرى التي رمت به في هوة اليأس وحملته على الاندفاع في حياته الفاتكة الماجنة عزاء وسلوى . ولكن الفريقين كليهما قد أخفقا في نظرنا في استكشاف الأهمية الحقة لقصته معها .

ونحن نصل إلى المغزى الصحيح للقصة إذا سألنا : لم اختار جنانا فنظم فيها كل هذه الشكوى والمناجاة ؟ هي جارية عفيفة كل ما يروونه عنها يشهد بشرفها ونقاها . ويتجلى لك هذا إذا قارنت أخباره معها بأخباره مع غيرها من القيان اللاتي عرفن . فأخباره معها تخلوا تماماً من تلك الأحاديث الداعرة والمزح المفحشة التي تجدها في قصته مع عنان مثلاً . ويخيل إلينا أنها بهرته بهذه العفة الرائعة التي لم يعدها في غيرها من النساء اللاتي عرفن . فأثارت في قلبه أمل الخلاص على يديها من محنته .

تمنى أن يتم له بحبها الصلاح فيقوم من انحرافه ويرجع إلى الحياة العادية
السليمة المستقيمة . وله شعريدل على أنه قضى مدة حين عرفها يحاول
أن يصلح أمره ويرعوى عن مجونه من أجلها :

لولا حذارى من جنان خلعت عن رأسى عنانى
وركبت ما أهوى وكم أجفو مقالة من نهانى
وخرجت أخبط سادرا لم اغن عن حب الغوانى
فهو قد رأى فيها مثال الطهر الأنثوى الذى حطمته أمه ، فأمسك
بها كما أمسك الغريق بالخيوط الاخير الذى يحمل له أمل النجاة ، وله بيتان
يدلان على أنه وضع فيها آخر أمل له ، فان تحقق نجاحا وإلا هلك إلى الابد

جنان ان جدت يا منى بما أمل لم تقطر السماء دما
وإن تمدى - ولا تمدت - فى منعك أصبح بقفرة ربما
وقد قال فى استعطافها هذا البيت الغريب الذى يستحق أن نقف أمامه
لا تفجعى أوى بواحدنا لن تخلفى مثلى على أمى
وذكره لأمه بهذه الطريقة الغريبة فى حديثه إليها قد يعزز دعوانا
أنه التمس فيها عوضا عن المثل الأعلى الانثوى الذى تحطم فى أمه .
ولقد نظم فيها مقطوعته الرائعة المبدومة النظير فى شعره :

وذات خد مورد	فضية المتجرد
تأمل العين منها	محاسنا ليس تنفد
الحسن فى كل جزء	منها معاد مردد
فبعضه قد تنهى	وبعضه يتولد

وكلما عدت فيه يكون بالعود احمد
فاشرب على وجه بدر ريان غير معربد
وهذه أغنية في امتداح الجمال الانثوى تغلو بالنزعة الجسدية في
تأمل فني رفيع يذكرنا بروائع النحت الإغريقي الذي يتملى جمال
الجسم الانثوى بروح فنية عالية تستكشف سر الجمال الخالد المتجدد
وتجليه في الاشكال المادية .

وحمله حبه لها على أن يحج بيت الله الحرام حجته المشهورة
ألم تر أنني أفنيت عمري بمطلبها ومطلبها عسير
فلما لم أجد سببا إليها يقربني وأعيتني الامور
حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني وإياها المسير
وهو كما ترى حج لم يكن خالصا في أصله لوجه الله عز وجل ،
ولم يخل من العبث ، ولكن ما أن استتب به المقام في البقعة الطاهرة
حتى غلبته نوبة صادقة من الصلاح والتدين نظم فيها أنشودته الدينية
البديعة « الهنا ما عدلك » . ولا أظننا نبالغ حين نرى في هذه النوبة
الوقفية أثرا من حبه المتطهر .

— وخلاصة رأينا في قصته مع جنان أنه نشد في هذه الجارية
الشريفة منقذه من فساد و بذل جهدا عنيفا دام مدة غير قصيرة .
ولكنه اخفق ، وسبب إخفاقه ان انحرافه كان قد بلغ درجة لا صلاح
له بعدها مهما يبذل من جهد ، ويروون انها لما رضيت به بعد طول
التمنع اشترطت ان يتوب عن اللواط ، فرفض . ولا بد انه استكشف

أنه كان يبنى نفسه بأمنية محتوم لها الإخفاق ، فلقد صار شذوذه أعسر
من أن يقدر على تقويمه . ولما تجلى له فشله في هذا الأمل الأخير ارتد
إلى غيه كأعنف ما كان .

من هذا يرى القارىء أننا نعتقد أن أرجح الأسباب لشذوذه
عقدته النفسانية التي تكونت في عقله الباطن حين تزوجت أمه بعد
وفاة أبيه . ولكن ربما يسأل القارىء : لم لا نفسر شذوذه تفسيراً
أقرب وأسهل بما رآه في صغره من تعهرها إذ فتحت بينها لطلاب
الهلوى على ما تقرره بعض الروايات ؟

وهذا يكون بلا شك تفسيراً أقرب وأسهل . فأننا نستطيع أن
تخيل الأثر الفظيع الذي تخلفه مثل هذه السيرة في نفسية ولد مرفه
الحس شديد التأثير . لا بد أن ذاكرته تحتزن مناظر بشعة تنفره عن
وصلة النساء إلى الأبد ، ولكن الذي يمنعنا من الاعتماد على هذا
التفسير هو أننا لسنا مقتنعين بصحة هذه التهمة ، بل نحن نشك فيها
شكاً شديداً ، ويخيل إلينا أنها لا تزيد على أن تكون من قبيل التهم
الكثيرة الكاذبة التي كانت تشيع في ذلك العصر بين الشعراء المهاجرين .
فما أكثر الشعراء الذين اتهمت أمهاتهم بالفاحشة ، وخصوصاً إذا
كانوا من الموالي . وبنفس التهمة رميت أم بشار بن برد ، إن أحب
القارىء أن نذكر له مثلاً واحداً . ويقوى من ترجيحنا أمران ، أحدهما

ان الروايات الأخرى تنسب أم أبي نواس إلى إحدى الحرف التي
كسبت بها معاشها . والمرأة التي تحترف البغاء أو القوادة لا تحتاج إلى
ممارسة حرفة أخرى يدوية مجهدة ، ومثل هذه المرأة الصانعة المتاجرة
يضطرها عملها إلى الاختلاط بالرجال فتتسع ضدها فرصة الشائعات
الكاذبة ، والغالب على هؤلاء النسوة اللاتي يرغمن على التكسب أن
يكن شريفات بل يكن على قدر كبير من قوة الشخصية والاسترجال
كما نشهد في تجاربنا ، والأمم الثاني أنه لو كانت التهمة صحيحة لاستغفلها
خصوم أم أبي نواس من الشعراء الذين هجوه استغلالاً طويلاً لا يهدأ ،
وهذا ما لا نجده .

ولكن دعنا نتبع هذا الغلام حين خرج من بيت أمه بهذه العقدة
الدفينة ، لنجد الظروف التي تلقاه وتلقفه خارج البيت غير نافعة في
شفاء هذه العقدة أو رد ذلك العزوف النفساني ، بل هي على العكس
تماماً تتعاون على تقويته ومضاعفته ، وهي التي ستحوله سريعاً إلى
شدوذ جنسي مستديم .

✓ فهو يخرج إلى مجتمع برز فيه هذا الشذوذ وبدأ ينتشر ويستشري
خطبه ، فسقط في برائته رجال كثيرون . وخصوصاً في الأوساط
الأدبية التي تقود أبا نواس شاعريته الموهوبة إلى الاختلاط بها .
فالمعلون الذين يلجأ إليهم ، ورجال الأدب والرواية الذين يؤم
مجالسهم وحلقاتهم ، والشعراء الذين يتلمذ عليهم ثم يصاحبهم

وينافسهم ، والأغنياء الذين يطمع في هباتهم ، كان الكثيرون من هؤلاء من ذوى المزاج الجنسي المنحرف ، فتسارعوا إليه وقد بهرهم جماله وفتنهم حسن قده ورشاقة جسمه ونعومته ، فوجدوا فيه نفسية معدة أتم إعداد للاستجابة السريعة الراضية . ومنهم تعلم هذا السلوك الشاذ .

وهنا يجب ألا نبالغ في أثر والبة بن الحباب وأمثاله في إفساده ، فما كانوا ليظفروا هذا الظفر السريع لولا ما شرحناه من أثر نفسى عميق تركه فيه زواج أمه وأعدده للشذوذ ، ووالبة خاصة يظلمه القدماء والمحدثون حين يصورونه بصورة الوحش المفترس الذى انقض على هذا الغلام الطاهر البرى . ففتك به ، ينسون ان والبة لم يكن أول من أفسده (ارجع إلى اخبار ابن منظور لتتبع قصص إفساده قبل لقائه والبة) ، وينسون انه هو تاقث نفسه إلى لقاء والبة كما تقرر كثير من الروايات ، وانه هو الذى سعى إليه كما تقول بعضها ، ولا يدركون حقيقة اخرى هامة تتجلى لنا اذا أنعمنا النظر فيما يروى عن صحبتيهما ، وذلك ان والبة لم يكن مجرد فانك أنانى مقتصب ، بل هو قد أحبه واعزه اعزازا عظيما واحاطه بمزيد من العطف والرعاية والحنان واهتم بتعليمه وثقيفه وبذل جهده فى انماء عبقريته واذكائه حسه وصقل شاعريته حينما استكشف فيه معدنها الصادق ، فالحق انه استعاض بوالبة عن جزء كبير مما حرمة من الرعاية الأبوية والحنان الأموى .

قلنا إن أبانواس خرج إلى مجتمع ظهر فيه الشذوذ الجنسي وبدأ
ينتشر ، وبحسنا لا يتم إلا إذا استعرضنا هذه الظاهرة الاجتماعية العجيبة
التي بدأت في منتصف القرن الثاني الهجري ثم امتد طوفانها امتدادا
جارفا في القرون الثلاثة التالية حتى يخيل إلينا أنه ما كاد ينجومها شاعر
أو أديب أو فنان أو وزير أو فرد من أفراد الطبقة الموسرة .

كيف نعلل هذه الموجة الطاغية ؟ لا نستطيع أن ندعي أن كل
هذا العدد من الناس قد أصيب بالالتواء الجسماني الذي ينتج الشذوذ ،
فهذا الاضطراب الباثولوجي لا يحدث إلا لأفراد قليلين . ولا نستطيع
أن نتلمس في نشأة كل منهم نظير ما استكشفناه في طفولة أبي نواس
من ظروف تربوية خاصة ، فان هذا يكون مصادفة بعيدة عن التصديق .
ولكننا نعثر على التعليل الصحيح إذا تذكرنا ما يقوله العلماء عن
الانحلال الخلقي الذي يطرأ على كثير من الحضارات ، وإذا تذكرنا
ما يقولونه عن الارتباط بين الحاسة الفنية والحاسة الجنسية .

فالحقيقة هي أن الحضارة الإسلامية ابتليت بنفس الداء الذي
رأيناه في حضارات أخرى كثيرة حينما وصلت طور نضوجها وبدأ
يتطرق إليها الانحلال الخلقي ، بل ربما تكون قد اجتمعت فيها
أسباب للانحلال الخلقي لم تجتمع في حضارات أخرى . وأهم هذه
الأسباب اختلاط عدد كبير من الأجناس البشرية المختلفة فيما بينها
اختلافا عظيما في الأديان والعقائد ، وفي العادات والتقاليد ، وفي

المقاييس الخلقية . صحيح أن كل حضارة ناضجة في التاريخ قد تولدت عن اختلاط جنسين أو أكثر من أجناس البشر ، ولكن ما نحسب حضارة أخرى شهدها التاريخ جمعت بين صفتيها كل هذا العدد من الأجناس والأمم التي حشدتها الحضارة الإسلامية في رقعة ضيقة من الأرض . ومن الخطأ والظلم أن نعزو هذا الانحلال الخلقى إلى أثر أمة واحدة بعينها من هذه الأمم التي جمعتها الحضارة الإسلامية ، كما يعزو بعض الباحثين هذا الانحلال إلى الأمة الفارسية مثلاً فيقولون إن الفرس هم الذين أدخلوا الشذوذ الجنسي إلى هذه الحضارة ، ويستشهدون بأن العرب من قبل لم يعرفوا هذا الشذوذ . فالحق أن الانحلال الخلقى إنما نشأ عن اختلاط كل هذه الأجناس ، بأديانها المختلفة وعاداتها المتباينة ومقاييسها المتفاوتة ونظمها الاجتماعية العظيمة التنوع والاختلاف ، اختلاطاً نجم منه كثير من الاضطراب والبلبلة وتولد عنه الشك في صدور الكثيرين ممن رأوا مقدار الاختلاف بين هذه الأمم فيما تعتقد أنه الحق ، والخير ، وتمسك كل منها بنزعتها ومشربها واعتقادها أنها على صواب وغيرها على ضلال ، فانهى بعض المفكرين إلى الشك فيها جميعاً ، وانتشر هذا الشك الدينى والخلقى والفلسفى فى الكثيرين من المثقفين ، وقاد إلى تهاون فى النظرة الخلقية وتساهل فى السلوك .

وفى أثناء هذا كانت الحضارة الجديدة تفعل فعلها فى إرهاب الحس

وشحذ الذوق الفني بما أنتجته من فنون وثقافة حضرية وتنعم في مرافق العيش . فالشعر الجديد ، والموسيقى ، والغناء ، والرقص ، والتفنن في أنواع الملابس وألوان المآكل ووسائل الراحة والترفيه في المساكن ، وكثرة البساتين والزهور ، وغير هذه من علامات الرخاء وآثار الغنى ومبتكرات الحضارة ، كل أولئك تكون نتيجته إرهاب الذوق وتنشيط الحس وتدقيق الشعور . فتكون العاطفة أشد توفزا وأعظم استعدادا للاضطراب وأسهل انحرافا إلى المسالك الغريبة في التنفيس والإرضاء .

لا ندعى أن هذا الأثر يعم جميع الناس ، ولكنه على الأقل يصيب أفراد الطبقة الغنية من الملوك والوزراء وكبار التجار وغيرهم من الموسرين ومن لحق بهم وعاش في كنفهم من الشعراء والكتاب والمغنين ورجال الموسيقى . ولا ننسى في هذا كله مؤثرا عظيما هو انتشار الجوارى .

فقد كان من أثر الفتوح الإسلامية وجود ألوف مؤلفة من الجوارى المختلفات الأجناس والألوان والأقدار والأثمان ، وقد أباح الإسلام للسيد أن يحظى بجاريته التي أسرها أو اشتراها ، وكانت نتيجة هذا أن أصبح الاستمتاع بالنساء أمرا سهلا ميسورا للكثيرين من الرجال ، وخصوصا أفراد الطبقة الموسرة ومن لحق بهم ، لا يتقيدون فيه بعدد . فبدأ بعض المثقفين يستهينونه ويعدونهم شيئا رخيصا مبتذلا ،

وأخذوا يتلمسون طرقا أخرى للتنفيس عن عاطفتهم الغرامية وما يصاحبها من حب وإعزاز ومناجاة وشعور بالتآلف والموادة بين المتحابين . لم يجدوا هذا في الجوارى المبتذلات اللاتي يستطيع أن يستمتع بهن كل من يقدر على دفع ثمنهن ، وقد رأيت مقدار اشمئزاز أبي نواس من إباحتهن ، فالتسوه في تعشق الغلمان . وزاد من لذة هذا التعشق أنه شيء جديد غريب غير مألوف فيه مسحة الابتكار التي يهواها الذهن الفنى ، وأن تحقيقه يحتاج من المحب إلى سعى وجهد ومحاولة وإلى تضرع إلى المحبوب وتوسل إليه قبل أن ينال رضاه ، وقد سمعت أبا نواس يقول :

ولا سيما وبعضهمو إذا حييته انتهرا

وصادف هذا وجود الغلمان من أبناء الفرس والروم ملاح الوجوه بيض الأجساد ناعمي البشرة ، بمن صقلتهم حضارتهم القديمة وأكسبتهم فنونا من الرقة والظرف ، فبدا جمالهم فريدا فتانا للعرب الحشنيين السمر الألوان القريبى العهد بجفاوة البداوة . وهذا معنى تأكيد أبي نواس بيمين ملاحظة أنه لو بعث المرقش لافتن بهؤلاء الغلمان .

ثم تأمل الآن عاملا آخر هاما ، هو سرعة وصول الحضارة الجديدة إلى طور نضوجها . فالحضارة المصرية القديمة ، أو الحضارة الإغريقية ، قد قطعت مئات السنين ترب وتختمر قبل أن تستوفى

نموها وتستكمل ازدهارها ، فلم يكن نضوجها حدثا طارئا غريبا وإنما
تعودت الأمة عليها بالتدريج وتطورت معها تطورا منتظما خاليا في
أغلبه من العنف والطفرة . فلم تنتج عنها زعزعة كبيرة في المقاييس
الخلقية إلا حين جاوزت سمتها وبدأت تدخل دور انحدارها . أما
الحضارة التي تكونت في الامبراطورية الإسلامية فإنها لم تزدد على قرن
واحد قبل أن يتم احتشاد عناصرها وتجمع مقوماتها . فان كانت
الحضارات الأخرى بصفة عامة نموا طبيعيا متدرجا فهذه الحضارة
ظاهرة مبتسرة تولدت معظم عناصرها الأساسية من حشد سريع مخطط
لبقايا حضارات سابقة مزجها الفتح الإسلامي الذي يضرب المثل بما
تحقق له من سرعة فائقة لم تتحقق في فتح آخر يعرفه التاريخ ويمتد
إلى نظير هذه الحدود المترامية من أقطار الأرض .

فان تدبرنا هذه السرعة الخارقة ، وتذكرنا مبلغ التفاوت
والاختلاف بين العناصر الجنسية والثقافية التي ضمتها الحضارة الجديدة ،
لم نعجب أن نشهد مقدار الزعزعة والاضطراب الذي نتج عنها في
المذاهب الفكرية والمعايير الأخلاقية ، ولم نعجب من ظهوره في
وقت مبكر من هذه الحضارة .

هذه هي الظروف الاجتماعية التي لقيت أبا نواس حين خرج من
بيته إلى خضم الحياة ، وهي ظروف لم تؤثر فيه وحده بل في الكثيرين
سواه من الموسرين والمتقنين والفنانين ، فان تذكرنا ظروف نشأته

الخاصة ، وإن ضمنا إليها جميعا ما قد يكون ولد عليه من الاضطراب
الباثولوجي ، أدركنا لماذا لم يقتصر في شذوذه على الدرجة التي نجدها
في كثيرين آخرين من معاصريه ، بل فاقهم جميعا حدة وعنفا ، وزاد
شعره الغزلي في الغلمان على شعرهم تهالكا واضطرابا . حتى صار
العلم الأعظم في هذا الباب في الشعر العربي .

✓ ماذا كان أثر شذوذ الجنسي في شاعريته ؟
قد أشرنا في الفقرة الأخيرة إلى أثره الأول ، وهو الأثر الأشهر
الذي يعرفه الجميع ، وهو امتيازه في الغزل بالمذكر على سائر شعراء
العربية .

وهو يمتاز عليهم في هذا الباب من حيث الكم والكيف معا .
فليس كمثله شاعر أكثر من نظم المقطوعات في هذا الفن ، وفي شعره
هذا قوة وحرارة تفوقان ما نقرؤه لغيره . لا نعتي أنه هو وحده
الذي أحب الغلمان حبا صادقا ، وإنما نريد أن نقول إن حبه هذا يصل
درجة من العنف والهيام والتهوس لا نجدها في غيره . ولا غرابة
في هذا بعد تأملنا في كل ما اجتمع عليه من أسباب الانحراف بما لم
يجتمع على شاعر آخر في العربية .

ولكن لا يظن القارئ أن هذا الأثر الواضح المعروف هو كل

ما أثر شذوذه في شاعريته . فان تأثير شذوذه لم يكن أثرا مفردا في فن واحد من فنون شعره ، بل كان أثرا شاملا عم كل طبيعته الشعرية وصبغها في مختلف النواحي .

وسنزداد إحاطة بنواحي هذا التأثير الشامل كلما مضينا في كتابنا ولكننا الآن ننظر في ناحية واحدة ، وهي عاطفته الجنسية وعاطفته البنوية نحو الخمر .

القارئ الذي يفكر فيما قدمناه في الفصل الأول من تحليل لهاتين العاطفتين في موقفه نحو الخمر ، والذي يتأمل في الحقائق التي شرحناها في هذا الفصل عن شذوذه ، يستطيع أن يستكشف الرابطة بين شعره الخمرى وشذوذه الجنسي . وهي رابطة تشرحها هذه الكلمة الواحدة « تعويض » ، بالمعنى النفساني الدقيق الذي يستعمل فيه هذا الاصطلاح (١) .

فأبو نواس قد عجز ، الأسباب المتعددة التي فصلناها ، عن تحقيق رغبته الجنسية مع النساء . فأنحرف إلى الغلمان ، ولكن هذا الانحراف لم يكفه ولم يرضه تمام الارضاء ، بل كان طبيعيا أن يظل يتحسر في صميمه على تلك اللذة الطبيعية التي صد عنها ، لم يزل جزء من نفسيته يحن إلى الاتصال بالأنثى ، هذا الاتصال الذي يستمتع به الآخرون من الرجال المستقيمي الطبع . وهذا الحنين يدفعه أحيانا إلى محاولة الاتصال ، ولكن نتيجته الغالبة الفشل والكره وزيادة المرارة .

وقد رأينا كيف حاول محاولة عصبية عنيفة أن يجد في جنان
منقذه من حياته الملتوية ، ورأينا كيف باء بالاختفاق . فهو يلتمس
شيئاً آخر يوهم نفسه بأنه انثى ويتخذة عوضاً .

وعلماء النفس المعاصرون يضربون أمثلة عديدة على الأشياء التي
يلجأ إليها هذا التعويض ، ويخصصون لهذه الظاهرة مصطلحاً أعطيناها
من قبل (١) يستعيرونه من علم الأديان المقارن ، وكلها أمثلة تبدو
غريبة محيرة ، أما الذي اتخذه أبو نواس عوضاً فهو الخمر .

تخيل الخمر انثى ، وخلع عليها صفات ، الأنوثة ، المخزية المثيرة
التي يجدها الرجال العاديون في المرأة . ووصفها بالبكارة والعذارة ،
وسماها فتاة وبناتاً وجارية ، أو سماها عجوزاً وعواناً ، وأوهم نفسه أنه
حين يمزق عن دنها نسيج العنكبوت فإنما يمزق غشاء البكارة عن انثى
عذراء ، وتخيّل أنه حين يخرق الدن بالمشقب الحاد فهو يأتى عملاً
جنسياً مباشراً كالذى يأتیه الرجال القادرون ، ونظر إلى سائلها
الأحمر يسيل من الدن بعد خرقه فتوهم أنه دم العذارة بعد الاقتضاض ،
وخيل لنفسه أنه حين يضيف إليها الماء فتضطرب وتنزو فهو يرغب
عليها ذكرّاً عنيفاً يواقعها ، وراقب هذا التفاعل بخيال شهواني حاد ،

(١) Fetishism ومعناها الأصلية اتحاد الشعوب الهمجية لمجادات يعبدونها إذ
يتخلون فيها قوى سحرية أو يتوهمون أن بها روحاً . ثم يستعيرها علماء النفس للأشياء
المادية التي يتخذها بعض المتحرفين موضوعاً للتشوق الجنسي .

وجعلها تتشوق إلى المواقعة وتبادل الذكر عنفاً بعنف أو جعلها حية
 خجولا تمتعض من مس الذكر ، وأوهم نفسه حين يرشفها من قدحها
 بحرقه أنه يقبل شفة فتاة أو خدها ويشبك احشاءه باحشائها ، وجعل
 سعيه إلى بائعها سعيّاً إلى خطوبة ، وجعلها عروساً وجعل إقبالها عليه
 زفافاً وما يدفعه من ثمنها مهراً ، إلى آخر ما صور له خياله المريض ..
 وهو في كل هذا التخيّل الشهواني العنيف يجد في صميمه إرضاء
 انفعالياً يعتقد أنه إرضاء جنسي ، ويستعويض به عن الارضاء الواقعي
 الذي عجز عنه في أغلب أحيانه .

وتعليلنا هذا بالتعويض هو بطبيعته استنباط نفساني لا يمكن
 القطع فيه بالدليل ، وأقصى ما يدعى له الوجاهة وكفاية التفسير ،
 شأنه في ذلك شأن جميع التعليلات النفسانية ، ولكنه ربما يزداد قوة
 إذا أنعمنا النظر في أبيات يقارن فيها أبو نواس بين لذة الخمر ولذة
 النساء مقارنة صريحة ، تأمل مثلاً في قوله

دع الربع ما للربع فيك نصيب وما ان سبتني زينب وكعوب
 ولكن سبتني البابية إنها لمثل في طول الزمان سلوب

لولا تشابه اللذتين في مخيلته لما استعمل هذا الأسلوب ، فهو كما
 ترى يصرح بأن لذة الخمر عنده موازية للذة المرأة عند غيره من الرجال
 وأنه يهيم بها نفس الهيام . ثم تأمل قصيدته المشهورة
 لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقف أمام بيتها الأخيرين

تسقيك من يدها خمر أومن فمها خمر افما لك من سكرين من بد
لى نشوتان وللندمان واحدة شىء خصصت به من دونهم وحدى
وانظر كيف يقرن قرنا تاما بين لذة المرأة ولذة الخمر ، ويجانس
بين النشوتين ، وبيته الأخير يستحق مزيدا من التفكير ، فما النشوتان
اللتان يتحدث عنهما ؟ الجواب القريب : نشوة شرب الخمر ونشوة تقبيل
المرأة . ولكن لم يدعى أنه وحده يستمتع بكليتهما ؟ وما النشوة التى حرمها
سائر الندمان ؟ ألا يستطيع الآخرون أيضاً أن يشربوا الخمر وأن يقبلوا
المرأة ؟ بلى ، فلم يدعى أنه اختص من دونهم بنشوة خاصة ؟ وما هى ؟
حين نفكر فى هذه المسائل التى قل أن يسألها أحدنا نفسه تهتدى
إلى النشوة التى يدعى أبو نواس التفرد بها ، ليست نشوة الشرب
العادية ، فغيره يحصلون عليها ، وليست لذة تقبيل المرأة ، فهذه أيضاً فى
مقدورهم ، ولكنه يعنى تلك اللذة الغريبة التى شرحناها ، اللذة الجنسية
التي يحصل عليها من شرب الخمر ، فهو يريد أن يقول : ان الندمان
يستمتعون بنوع واحد من اللذة حين يشربون الخمر ، ولكنى أحصل
منها على نشوة ثانية تشابه لذة تقبيل المرأة . أوضع كلامه فى عبارة
أكثر ضبطاً وقل أنه يحصل من الخمر على لذة مزدوجة ثنائية العنصر ،
فعنصرها يختلطان لديه اختلاطاً عجيباً .

وانظر أخيراً إلى هذه الأبيات يقارن فيها بين جمال الساقية
وجمال الخمر :

تسعى إلى بكأسها كرخية يختصها ندمانها بوداد
ناطت بعاتقها الوشاح كما ترى بطلا يحاول نجدة بنجاد
فرأت عقود الراح دروشاها فحكينهن وهن غير جماد
فتلا لا النوران نور ساطع ومنظم أرج على الأجياد

قوله « يختصها ندمانها بوداد » فيه إشارة إلى أنه ليس من هؤلاء
الذين يختصون المرأة بالوداد ، فهو يختص بوداده شيئاً آخر . ثم انظر
غيرته بالنيابة عن الخمر حين رأى المرأة تتيه بجمال حليها ، فأبى إلا أن
يجعل للخمر حلياً لا يقل جمالاً ، ينافسها نورا ، وزاد فجعل بريق الخمر
بريقاً حياً أكسبه روحاً ، فعقود الراح « غير جماد » .

ولكن الخمر قدمت لأبي نواس تعويضاً آخر ، عوضته عن أمه
التي حرم حنانها في وقت مبكر من طفولته حين تزوجت غير أبيه .
والقارئ الذي يعود إلى أبياته التي قدمناها في هذا الموضوع لن يخفى
عليه الآن هذا التعويض . ففيها يسمى الخمر درة ، ويجعل صبه إياها
في الكأس حلياً ، ويجعل شربها رضاعة . أعد النظر بنوع خاص
في بيته :

وانظر إذا هي قابلتك تهيؤا نظر اليتيم إلى يد الأم

فليس بعد هذا تدليل يراد ، وفي أبياته الشجيرة المتلهفة :

قطربل مربعي ولي بقرى الـ كرخ مصيف وامى العنب

ترضعني درهما وتلحفني بظلمها والهجير يلتهب
فقممت احبوا إلى الرضاع كما تحامل الطفل مسه السغب
ولكن أهذا « تعويض آخر » كما قلنا ؟ قد رأينا من أهم أسباب
شدوذه الجنسي، ان لم يكن أهمها جميعا ، حرمانه عطف أمه ورعايتها ،
وغيرته الشديدة من زواجها ، الأمر الذي أدى به إلى كره النساء
جميعاً والنفور من وصالهن والعجز عن الاستمتاع بهن . فالحرمانان ،
حرمان الأم وحرمان اللذة المعهودة مع النساء ، متصلان كما ترى ،
أحدهما نشأ عن الآخر ، لا جرم أن يكون التعويضان اللذان حصل
عليهما من الخمر مظهرين لحقيقة واحدة .

والآن بدأنا نفهم السر الحقيقي في تعلقه بالخمر ذلك التعلق
الشديد المفرط .

استطعنا أن نفهم الرابطة العميقة الحيوية بينه وبينها ، وأن ندرك
لم لم يطق عنها بعداً وسلوا لها . وأن ندرك لم كانت « شقيقة روحه » ،
عاذلى في المدام غير نصيح لا تلمنى على شقيقة روحى
وأى جنوح جنح قلبه إليها ، وأى عطوف عطفت نفسه عليها :
يحنح القلب إليها فى الهوى أى جنوح
عطفت نفسى عليها بهوى غير نزوح
ولم كانت « روحه دون الروح » ،

تلك - لا أعدمنيتها - الله - روى دون روى

ولم يشعر كأنها «تعصر من عظامه»

أجل عن اللثام الراح حتى كأن الراح تعصر من عظامي

بل نحن نفهم سر هذه التعبيرات بأعمق مما كان يستطيع هو ،
فالخمر متصلة أو ثقل اتصال بتكوينه العصبي وبنائه النفساني . هي
مرتبطة أعمق ارتباط بعقدة النفسية التي تكونت فيه منذ طفولته ،
وقد وجد فيها حل هذه العقد وتفرج أزماها العاطفية التي نشأت عنها ،
وجد فيها العوض عن الحب الجنسي الطبيعي الذي يحققه الرجال
العاديون التكوين مع النساء ، ووجد فيها العزاء والسلوى عن الذي
حرمه من الحنان الأموي ، ووجد فيها تحقيقاً آخر نريد أن
نشرحه الآن .

علماء النفس الفرويديون يرون أن بكل منا نزوعاً باطنياً خفياً إلى
عاطفة فاسقة (١) ، هي الاتصال الجنسي بالأم ، والقارىء الذي يسمع
هذا الادعاء للمرة الأولى سيدعز أعظم الذعر ويستنكر أشد
الاستنكار ، ولكن ما نظن تدليل العلماء على هذه الدعوى قد ترك
بجلاً للشك ، مهما تؤلمنا هذه الحقيقة وتراستشاعنا ، اللهم إلا إذا

كنا نحن يرفضون علم النفس الحديث من أساسه (١). ولعل القارىء المحقق النزيه الذى يستطيع تذكر الاحلام التى كان يحلمها فى صباه وأول شبابه يقدر ان يتذكر أحلاما كثيرة مخيفة كان يتم فيها تحقيق هذا النزوع الفاسق ، ثم يستيقظ بعدها الفتى مرعوبا غاضبا على نفسه سعيدا أعظم السعادة أن هذا لم يكن سوى حلم .

وهذا نزوع طبيعى يكمن فى أعماق العقل الباطن وتبذل النفس جهدا للتخلص منه والتطهر من إثمه البدائى ، وتتخذ أساليب لحله وإلغائه شرحها العلماء . وينتهى معظمنا فعلا إلى الفوز بهذا الحل والإلغاء ، فيكون فى هذا اكتماله النفسى ونضوج شخصيته واعتدالها . ولكن ما نزن أبا نواس فى ظروفه الخاصة استطاع أن يحل هذه العقدة ، بل نعتقد أنه بقى طول حياته يحترق بهذه النار الآكلة . والسبب ان أمه « خاتنه » وهجرته إلى رجل آخر قدمت له جسدها يستمتع به ، وهى ذكرى كلما استثيرت فى عقله الباطن هاجت من غيرته وأسعرت نارها . وهنا قدمت له الخمر هذا الارضاء الذى نغنيه ، فهى أنثى ، ولكنها أم أيضا ، وهو يستطيع أن يواقعها فيرضى بذلك نزوعه الفاسق .

(١) أساس علم النفس الحديث فرض وجود جزء باطن من العقل لا يصل إليه وعينا المدرك وتتصارع فيه غرائزنا وعقدنا البدائية والمكتسبة . وهو كما ترى فرض يستحيل إثباته إثباتا ماديا ، وأقصى ما يعززه أنه يقدم تفسيرا وجيها كافيا للكثير من الظواهر النفسانية الغريبة التى كانت تحيرنا من قبل .

لعل استنباطنا هذا يزداد قوة إذا عرفنا ان أبياته الجياشة التي
يحن فيها إلى الخمر كام ، تليها مباشرة أبياته الغنيمة التي يتشوق فيها
إليها كأنثى :

قطربل مربعى ولى بقرى الـ كرخ مصيف وأمى العنب
ترضعنى درها وتلحفنى بظلمها والهجير يلهب
فقمتم احبو إلى الرضاع كما تحامل الطفل مسه السغب
حتى تخيرت بنت دسكرة قد عاجتها السنون والحقب
هتكت عنها والليل معتكر مهلهل النسج ماله هذب
من نسج خرقاء لا تشد لها آخية في الثرى ولا طنب
ثم توجأت خصرها بشبا الـ إشنى فجاءت كأنها لهب
فليتأمل القارئ مليا في هاتين العاطفتين تلى إحداهما الأخرى
بهذه المباشرة وليفكر في سر هذا التلو ...

قلنا إننا نستطيع أن نفهم سر شغفه بالخمر بأعمق مما يستطيع
هو ، وليس في هذا غرابة ، فأحدنا يخضع في تكوينه الجسماني
والنفساني لقوى قد لا يفهمها هو ، وتصدر تصرفاته عن دوافع عميقة
وتتحكم في سلوكه عقد خفية ربما لا يعرفها ويستطيع استكشافها فيه
غيره وخصوصاً إذا كان ممن درس حقائق النفس وأدرك تعقدها
والتواءها وعرف الألقعة الموهمة التي تحاول أن تختفي وراءها .
وما نحسب أبانواس نفسه قد أدرك السر الكامن وراء أبياته الماضية

التي يحن فيها إلى الخمر كأنهم ثم يحقق معها شهوته الجنسية ، ولو سمع
شرحنا لكذبه واستنكره . ولو سمع ادعاءنا أنه أصيب برابطة
الأم وعجز عن حلها طول حياته لبلغ غضبه وثورته ما يبلغانه من
أى شخص معاصر إذا نبه إلى هذه الحقيقة . فلعله قد قضى حياته
كلها دون أن يفكر في أمه بهذا المنزع تفكيراً واعياً ، بل دون أن
يسخط عليها سخطاً ظاهراً ، وإنما كل هذه نيران تضرى في أعماق
نفسيته دون أن يفهمها وتدفع به إلى سلوكه الشاذ الملتوى في سيرته
دون أن يفهم هو سر هذا الانحراف أو يستطيع له إصلاحاً برغم
محاولاته المتكررة .

فإذا قرأنا الآن أبياته الجميلة المطربة

لست أرى لذة ولا فرحاً ولا نجاحاً حتى أرى القدحاً
لا عيش إلا المدام اشربها مغتبطاً تارة ومصطبجاً
يا صاح لا أترك المدام ولا أقبل في الحب قول من نصحا
فهمنا أى « لذة » وأى « فرح » وأى « نجاح » كانت الخمر تقدم
له . وأدركنا لم لم يستطع « العيش » بدونها في عقده الصعبة وانتواءاته
العسيرة ، وفهمنا سر قرنه بينها وبين الحب الذى يلومه فيه الناصحون
وهو حبه للخلجان ، فهى المعوض له عن هذا الشذوذ الذى منى به
ولم يستطع له إصلاحاً برغم لوم اللائمين وبرغم سخطه هو عليه في
قرارة نفسه . وكذلك الشأن في شعره الآخر الكثير الذى يصور
فيه مبلغ تعلقه بالخمر ، والذى كنا نظن أنه مجرد مبالغات ومجازات ،

وهو الشعر الذى افتحنا كتابنا هذا بدراسة نخبة منه ، فليعد إليه القارئ الآن ليزيده تأملاً ويستكشف فيه أعماقا جديدة . . .

ونختم هذا الفصل بأبيات سبعة عظيمة الشجن شديدة الحرقه قوية الأشجاء ، تاركين تأملها للقارئ ، فإن لم يوافقنا على تفسيرنا النفساني لها فان عليه أن يجد تفسيراً آخر مقنعاً يكفي لتعليل هذا الوجد المتطرف الذى تنصره الأبيات بحرارته وتزلزل بعنفه والذى يثير في نفس قارئها أعنف اضطراب فنى

ردا على الكأس انكما	لا تدريان الكأس ما تجدى
خوفتماني الله ربكما	وكخيفتيه رجأوه عندي
لا تعذلا في الراح انكما	في غفلة عن كنه ما تسدى
لو نلتما ما نلت ما مزجت	إلا بدمعكما من الوجد
هاتا بمثل الراح معرفة	بلطافة التأليف والود
ما مثل نعمها إذا اشتملت	إلا اشتمال فم على خد
إن كنتما لا تشربان معي	خوف العقاب شربتها وحدي

لعلنا الآن نفهم هذا التقرير الغريب الذى ادهش به معاصريه ، ولعلمهم ظنوه يعيبث بهم ، ولعلنا نوافقه عليه موافقة تامة .
قال : خمرياتى كلها جد ...

الفصل الثالث

النسوة الربانية

هل كان زنديقاً أو متشككاً ؟ اقتناعه بصحة الإسلام . منزلة المؤمن العاصي . إيمانه العميق بالله . أمله العظيم في رحمته . افتتانه بالطقوس المسيحية . محاولته الجادة في التوبة والصلاح . شعره في الزهد . فترات التقوى والورع . عيوفه اللذة وكثرة تفكيره في الموت . التوفيق بين جانبي نفسيته . هل تاب توبة نهائية قط ؟ امتزاج النسوتين الدينية والجسدية في بعض فتراته . العلاقة بين النسوتين . عبادة الرموز الجنسية في الأديان البدائية . العنصر الجنسي في التعبد المسيحي . لدى عامة المسلمين . لدى الصوفية . ظاهرة التحول في حياة القديسين وكبار العباد . اضرار الرهبانية . سلامة الإسلام واعتداله . صفاء شعائره من الغرائز المكبوحة . سر افتتان أبي نواس بطقوس المسيحية .

هذا الرجل الآثم ، الذي قضى حياته في قرع الكؤوس والفسق بالظلمان ، كان ذا عاطفة دينية عميقة ، وذا قدرة بعيدة على الانتشاء التعبدى العنيف .

وهذه ناحية من نفسيته غريبة تبدو مناقضة للناحية الأخرى ،
وهي تحتاج منا إلى تدبر ملي تفهم طبيعتها ونحقق أسبابها ونحاول
التوفيق بينها وبين جانبه الخليع إن استطعنا . ونحن نحتاج في هذا
السبيل إلى أن نعرف حقائق عن النشوة الدينية والنشوة الجسدية قد
قد تبدو غريبة أو مستحيلة ، ولكنها ما تشهد به الدراسة المقارنة
الأديان وما يرشد إليه التأمل في طبيعة الشعور الديني ومقدار ارتباطه
بالحياج الحسى في نفوس الكثيرين من البشر .

نبدأ بمناقشة هذه المسألة الأولية : أكان أبو نواس زنديقا؟ هل
يدل إيمته واستهتاره على كفر بالاله أو رفض لصحة الدين أو تشكك
فيهما؟

حين يقول

ألم ترني أبحت اللهو نفسي وديني واعتكفت على المعاصي
كأني لا أعود إلى معاد ولا أخشى هنالك من قصاص

فأهم كلمة هنا هي « كأني » . فهذا ليس رجلا ينكر المعاد أو يكذب
بالحساب ، بل هو رجل يؤمن بهذه العقائد الدينية ومع ذلك يرتكب
المعاصي . هو رجل أباح نفسه للهو والمعصية ، لا لأنه يكفر بالدين ،
بل مع إيمانه بالدين . أى هو فرد وجد إغراء اللهو والمعصية أقوى
من أن يدفعه عنه تحذير الدين وإن كان مؤمناً بصحة هذا التحذير .

وحين يقول

فخذها ان أردت لذيق عيش ولا تعذل خليلي في المدام
فان قالوا حرام قل حرام ! ولكن اللذاعة في الحرام
 فهو يسلم تسليما كاملا باثم ما يفعل ، ولكنه يعطينا السبب الذي
 يسوقه إلى اتيان الحرام ، وهو أن اللذة التي يجدها فيه أقوى من أن
 يقاوم اغراءها ، وقد بلغ من قوتها أن دفعته إلى هذا العناد الثائر .

وقد يحزن على حاله ويأسى لعصيانته ويتحسر على ما فاتته من الصلاح ،
 ولكنه يظل برغم هذا مدفوعا إلى الخمر دفعا لا طاقة له برده ، لا هو
 يصده عنها تحريم الدين ولا هو يزهد فيها خوف العقاب الديني .

بكيت وما أبكي على دمن قفر وما بي من عشق فأبكي من الهجر
ولكن حديث جاءنا من نبينا فذاك الذي أجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا فلما نهى عنها بكيت على الخمر
فأشربها صرفا واعلم أنني أعزر منها بالثمانين في ظهري

هو إذن ليس كافرا وليس متشككا ، ولكنه في المرتبة التي سموها
 « منزلة المؤمن العاصي » . والذي يسوقه إلى هذا العصيان ضعف
 نفساني لا ضعف إيماني . وهذا ما يجب أن نتذكره حتى حين نقرأ له
 شعرا يحاول فيه أن يوهمنا - ويوهم نفسه - عكس ذلك . فهو حين
 يقول

وملحة باللوم تحسب أنني بالجهل أوثر عيشة الشطار
بكرت على تلومني فأجبتها إني لأعرف مذهب الأبرار

فدعى الملام فقد أطعت غوايتي وصرفت معرفتي إلى الانكار
ورأيت اتيانى اللذات والهوى وتعجلى من طيب هذى الدار
أحرى واحزم من تنظر آجل على به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبر انه فى جنة من مات أو فى نار
يريد أن يخيل إلينا - وإلى نفسه - أن الذى حمله على الشر هو
التشكك الدينى ، وحقيقة الأمر أنه لم يدفعه مذهب فكرى من الشك
بل ضعف نفسانى أمام إغراء اللذة والهوى . هو يمتعض إذ يرى
عصيانه نتيجة هذا الضعف وليس يصدر عن اقتناع حقيقى بخطأ
الدين أو شك فى صحته . ويريد أن ينفى عن نفسه تهمة « الضعف »
هذه ، ولكنه لا ينجح . وهذه الآيات نفسها تكشف تحايله . فهو
يعترف بأن مذهب لائمه « مذهب الأبرار » ، ويعترف بأنه حين يعصيه
فهو « يطيع غوايته » . وليس هذا مجرد تسليم جدلى لمناظره ، فهو
يكشف عن نفسه كشفا تاما حين يقول « وصرفت معرفتى إلى الانكار » .
فقوله « صرفت » يدلنا على أنه يحاول محاولة عنيفة أن يقاوم إيمانه
الراسخ أو « معرفته » وأن يقسره على انكار لا يشعر به فى حقيقة
الأمر . ثم يستمر فيكشف فى بيته التالين عن السبب الصحيح
الذى يسوقه إلى الاثم ، وهو تشوقه إلى اللذة الدنيوية وطبيعته المتعجلة
التي لا تطيق الصبر عن هذه اللذة ولا تقدر على الانتظار للذة الآخروية ،
أما ما يقوله خلاف ذلك عن الآجل الذى ليس عليه به سوى رجم
من الأخبار وعن انتفاء الدليل القاطع على وجود الجنة والنار فليس

إلا تبريرا . فشأنه شأن الكثيرين ممن يندفعون إلى عمل طائش
لا عن اقتناع فكري بصحته أو فضيلته ولكن عن سوق الغريزة
الحيوانية وإرغام العاطفة البشرية ثم يحاولون بعد ذلك ان يخلقوا
مبررا وجيها معقولا يبررون به سلوكهم ذاك ليدعوا انهم سلكوه
عن عمد وتفكير لا عن طيش ورعونة ، ثم يتم كشف القناع عن
نفسه حين يقول في بيتين يتلوان الأبيات الستة الماضية :

فدعى معاتبتي على ترك التقى وتعتبي فيه على الأقدار
لو كان لي قدر يساعد صرفه لرأيت كيف تعففى ووقارى

فالذى يخالف أوامر الدين عن اعتقاد بخطأه أو تشكك في صحته
لا يقول هذا الكلام ، بل هذا كلام رجل لا يزال في أشد عصيانه
وعناده يعتقد بأن سلوكه خاطئ ويتوق إلى السلوك القويم ويود لو
استطاع حياة التقى والتعفف والوقار ويعتذر عن خطاه
بعجزه ويقول إنه لو تخيرت ظروفه لأطاع الدين وسلك سبل
الصلاح .

وهو يلجأ إلى التبرير أيضا حين يقول

يا ناظرا في الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر
ماصح عندي من جميع الذى يذكر إلا الموت والقبر

فليس يصدق على نفسه حين يدعى أنه لم يثبت في يقينه إلا الموت
والقبر ، فهو قد ثبت عنده المعاد والحساب كما يدلنا في شعر آخر كثير

يؤمن فيه بهما إيمانا عميقا ويضطرب من خوفهما اضطرابا شديدا .
ولئنا هذه أقاويل متشدقة يستعيرها من متشككي عصره الحقيقيين
ويلوكلها لسانه محاولا بها أن يجعل عصيانه عصيان رفض لا عصيان
ضعف .

أما حين يقول

وملحة بالعدل ذات نصيحة ترجو إجابة دى مجون مارق
بكرت تبصرنى الرشاد وشيمتى غير الرشاد ومذهبي وخلائقي
لما ألحت فى العتاب زجرتها فتأخرت عنى بقلب خافق
كم رضت قلبى فاعلمى وزجرتى فرأى اتباع الرشاد غير موافق
فهو لا يقتصر على الإقرار بأن سلوكه غير الرشاد ، بل يصرح
بأنه طالما حاول أن يحمل قلبه على اتباع الرشاد وكثيرا ما زجره ،
ولكنه لم يفلح ، فان جبلته وأخلاقه تسوقه إلى الغي ، واتباع الرشاد
لا يوافق طبيعته ، وتأمل وصفه لتوليها عنه مذعورة ، فهذا يدل على
حدة زجره لهذه الناصحة حتى أرعبها ، ونحن أحد ما نكون فى المجادلة
حين ندرك فى صميم نفوسنا أن مجادلنا على صواب ويأبى عنادنا أن
نصيح إلى نصحه .

على أن هذا يزداد وضوحا فى أبياته الزاخرة
لو كان لى سكن بالراح يسعدنى لما انتظرت بشرب الراح (١) إفطارا

الراح شيء عجيب أنت شاربه فاشرب ! وإن حملتك الراح أوزارا
 يامن يلوم على صهباء صافية صر في الجنان ودعني أسكن النارا
 تأمل مرة أخرى في عنف تحديه الذي يتجلى في كل أبياته الثلاثة
 وخاصة في صرخته « فاشرب ! » ثم في شطره الأخير . وأحدنا لا يشور
 هذه الثورة إلا في حالة الإصرار على الخطأ والعناد ، فهو كما تدل
 الآيات مؤمن أتم إيمان بالجنة والنار والثواب والعقاب موقن بأن
 سلوكه يحمل نفسه الأوزار ويعرضها لهول العقاب ، ولكنها طبيعته
 العجلة النافذة الصبر تدفعه إلى الاستمتاع بلذات الدنيا لا لأنه يشك
 في لذات الآخرة التي وعدها المتقون بل لأنه أنفد صبرا من أن
 ينتظرها . ونفس هذه الحقيقة تكمن وراء بيتيه الصاخبين وإن بدا
 فيهما غير ذلك :

قلت والكأس على كف سي تهوى لالتشامى
 أنا لا أعرف ذاك الـ يوم في ذاك الزحام !
 فهو قد نظمهما في حالة افتتان شديد بلذة الخمر ، وقد استولى عليه
 سكر تكاد تشم نفحته في البيتين وتسمع لعنتمته في ثانيهما ، وردنا
 الهادى عليه : بلى أنت تعرف ذلك اليوم معرفة أكيدة وتحشاه خشية
 عظيمة ولولا ذلك لما صرخت هذه الصرخة المتحدية التي تحاول بها
 أن تغطي على هذه المعرفة المرعبة . (١)

(١) لاحظ أنه كان أيضا في حالة هياج جنسى شديد نحو الخمر كما ترى في صورته
 الرائعة يجعلها عاشقة محتاجة تنهالك عليه شوقا ورغبة .

✓ وخلاصة القول أن أبو نواس ليس كعمر الخيام الذي صدر
سلوكه عن تشكك حقيقى . فالخيام لم يسقه إلى لذة الدنيا إلا شكه في
لذة الآخرة ، فكر تفكيراً طويلاً مضنياً في معضلات الدين ومشاكل
الفلسفة وعجز من وراء هذا التفكير الجاهد أن يصل إلى حل يقنعه
ويرضيه ، فأحس بضيق فكرى وانقباض عاطفى لم يفرجهما إلا إقباله
على الكأس يفرق فيها همومه والتماسه المرأة ينسى في أحضانها
شكوكه القتالة . أما أبو نواس فما فكر طول حياته في مسائل الفلسفة
والدين تفكيراً جاداً ولا اهتم بها اهتماماً متصلاً فان حاول أن يتخذ
سمة الفكر الجاد المتشكك في بعض أبيات له فهذه دعوى يكذبها
سائر شعره ووقائع حياته . وأبو نواس ما شك قط في البعث وما
يعقبه من المثوبة والعقاب وإن حاول أحياناً أن يخادع نفسه ويقاوم
إيمانه العميق فكلها محاولات لتخدير ضميره الذى يؤنبه على سوء سيرته ،
وهى محاولات تشهد نظائرها في بعض من نعرفهم ممن لا نشك في صدق
إيمانهم ولكنهم يتصنعون الشك وعدم المبالاة حين يريدون أن يسهلوا
على أنفسهم الخضوع لإغراء لذة وقتية يعلمون أنها آثمة .

والخيام قاده تحيره الفكرى الطويل إلى الشك في وجود الله نفسه
فتأرجح بين إيمان وإنكار وقضى حياته في عذاب فكرى أليم . أما
أبو نواس فما شك في الله قط بل كان إيمانه به ثابتاً راسخاً حتى في
أشد حالاته ثورة وعناداً ، فما نعرف له بيتاً واحداً عرض فيه لذات

الإله بالشك حتى حين يكون في أعنف صحبه وتحديه ومجونه . بل كان
هذا الإيمان الراسخ العميق من أعظم الأسباب التي خففت من تحسره
على فساد حياته وتألمه من سوء عمله وتخوفه من هول العقاب . فهو
حين آمن بالله آمن بحلمه وعفوه ورحمته الواسعة وغفرانه المديد .
يتأمل في مبلغ إثمه وعظم جريرته فيأخذه الحزن والهلوع ولكنه
يتذكر الآية الكريمة الجميلة إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون
ذلك لمن يشاء ، فتدخل هذه الذكري على قلبه بردا وسلاما وتملؤه
بالأمل وتشيع في صدره نور الرجاء والتفاؤل
ترى عندنا ما يكره الله كله سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

ترى عندنا ما يسيخط الله كله من العمل المردى الفقى ما خلا الشركا
ومثله في مثل تركيبه الجسماني وتكوينه النفساني حين تعرض له
هذه الذكري تسهل له الاستسلام إلى غرائزه وأعصابه فيندفع في معصيته
ويجمع مع غوايته
وثقت بعفو الله عن كل مسلم فلست عن الصبياء ما عشت مقصرا

غاد المدام وإن كانت محرمة فللكبائر عند الله غفران

لم وعفو الله مبذو ل غدا عند السراط
خلق الغفران إلا لا مريء في الناس خاطي

وقد تقوده إلى إسفاف شديد

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ ربا غفورا
ستبصر إن وردت عليه عفوا وتلقى سيذا ملكا مجيرا
تعض ندامة كفيك بما تركت مخافة النار السرورا
هذه أبيات قد نرى في منطقها سفسطة وفي أسلوبها تبجحاً مذموماً
ولكنها لا شك صادرة عن إيمان حار بالله الرحمن الرحيم . ولقد
صدق ابن خلكان حين قال عنها : « وما أحسن ظن أبي نواس بربه
عز وجل حيث يقول - الأبيات . »

وهكذا تنتهي إلى هذه المفارقة : أن أبانواس استرسل في عصيانه
لا بالرغم من إيمانه وكفى ، بل بسبب إيمانه . وقد نوافقه في نظريته أو
لا نوافقه ، ولكنه لا شك مخلص أتم إخلاص حين يعبر عن طبيعة
إيمانه بالله ، فليس هنا تبرير يلتمسه لذنبه أو رجاء يخادع به نفسه وهو
يعلم أنه كاذب بل تنفيس صادق عن قلب أحب الله حبا جما ووثق
به ثقة عظيمة وكان خوفه وجزعه ينتهيان دائما إلى الاطمئنان إلى
عفوهِ ورحمته .

صحيح أنه في بعض شعره يحاول أن يحتج بالجبر وبأنه لم يفعل إلا
ما قضى الله عليه وقدر له . كما ترى في البيتين الثاني والثالث من قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
ليس للإنسان إلا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر
أعظم الأشياء في أصغر عفو الله يصغر

ولكنه هو غير مقتنع بكفاية هذا الاحتجاج فهو يبدأ مقطوعته
ويختتمها برجائه في عفو الله وتعاضم هذا العفو على كل الذنوب .

وفي بعض شعره يصل هذا الإيمان درجة رفيعة من السمو الفني
تهز قلوبنا هزاً شديداً فما تملك أعيننا أن تترقق بالدمع له ولا نحسب
أعظمنا سخطاً على سلوكه إلا يرجو له من الله العفو الرحيم هذا
العفو الذي أمله

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يدعوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم اني مسلم

انظر كيف يعترف على نفسه أتم اعتراف دون استثناء أو محاولة
اعتذار أو لجوء إلى احتجاج ويسجل عليها الذنب والإجرام في
أسلوب ضارع خال من التبجح ويقر بأنه لا حجة له على الله في معصيته
ولا حق يطالبه به سوى صدق إيمانه وعظيم رجائه في عفوّه .

وهو في إيمانه العميق هذا يأخذه الغضب حين يرى علماء مسلمين

يحاولون أن يحدوا مغفرة الله بغير الحد الذي جاء في الآية السابقة
وان يطردها من هذه الرحمة الواسعة المؤمن العاصي

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء
لا تحظر العفو إن كنت امرأ حرجاً فإن حذرَكَ بالدين إزراء
ولاحظ ان غضبه في هذين البيتين ليس غضباً أنانياً من أجل نفسه
ولكنه من أجل كرامة المولى عز وجل .

واستمع إلى بيته الرائع المؤثر

خوفتماني الله ربكما وكخيفتيه رجاؤه عندي
ثم يبلغ هذا الإيمان ذروة رفيعة في تسبيحته الزاخرة التي نظمها
حين حج ، وهي من أجمل ما قيل في الشعر العربي في مناجاة العبد لبارئه ،
يقولون إنه نظمها حين جن عليه الليل

إلهنا ما أعدلك مليك كل من ملك
ليك قد لبيت لك لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك

ما خاب عبد سألك أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك

كل نبي وملك وكل من أهل لك
سبح أو لبي فلك لبيك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك والساجحات في الفلك
على مجارى المنسلك لييك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك
يا خاطئاً ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك لييك أن الحمد لك
والملك لا شريك لك

هنا انهار صادق بعظمة خالق الكون والأحياء ، وتسييح رائع
بوحدايته ، وشعور عميق بهيمنته على الاجرام السماوية العظيمة
الساجحة في أفلاكها وعلى المخلوقات البشرية الضعيفة الضاربة في مسالك
الأرض ، وأمل كبير في استجابته دعاء السائلين من عباده الضعفاء ،
وتحسر مرير على الخطيئة وتلهف صادق إلى التوبة والصلاح .

وهو في هذه التسبيحة يتعبد إلى الله بالعبادة الإسلامية الصافية
المجردة عن التجسيم والتي هي نجوى روحية خالية من الطقوس والمسوح
والشارات الحسية . ولكن له مقطوعات يستجيب فيها للفتنة الخاصة
التي في العبادة المسيحية ، فيشغف بالاستماع إلى قرع النواقيس ويطر به
وقعها إطراباً شديداً ، وتسحره ألحان المزامير وغيرها من الأغاني
الدينية ، ويملاً عينه بالنظر إلى ما يتخذه الرهبان من الدهان والمسوح
والصلبان ، ويروعه منظرهم المتقشف الممعن في النسك ، وشخصهم
الذاوية التي أضمرها التبتل وانهكتها المغالاة في التهجد ، وينهر من
حياتهم المتخشنة العنيفة الانقطاع عن النعيم الدنيوي المسرفة في اجتناب

وسائل الراحة الجسدية . ويغمره كل ذلك بنشوة عظيمة يجد فيها غناه
عن لذاته المعهودة . ونختار له هنا هذه القطعة الجميلة

دع التشاغل بالذات يا صاح من العكوف على الريحان والراح
واعدل إلى فتية ذابت نفوسهم من العبادة نحف الجسم اطلاق
لم يبق منهم لرائيهم إذا حصلوا حذار ما خوفه غير أشباح
تلقى بهم كل محفو مفارقة من الدهان عليه سحق أمساح
لا يلفون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح

قد يسأل القارىء : ولكن إذا كان إيمانه بهذا العمق وتلففه الى
التوبة وحياة الصلاح بهذه الحرارة فلم يتب ويصلح حياته ، أو لم يحاول
هذا على أى حال ؟

والجواب أن هذا هو عين ما حدث . حاول أبو نواس في بعض
أوقاته محاولة جدية ان يتوب ويرعوى ، ولكن ضعفه كان يعود
فيغلبه ويرده إلى الحياة الآثمة ، والشاهد على محاولته الجادة مقطوعاته
الكثيرة التي نجدها في ديوانه في باب الزهد .

وقد نستغرب من مثله في فسوقه وغيه أن ينظم هذه المقطوعات ،
وكان يسهل علينا ان نعللها لو استطعنا أن ندعى أنها خالية من العاطفة
الصادقة وأنها مجرد تصنع أو مباهاة بسعة مقدرته الشعرية واستطاعته
كل فن من فنون النظم ، أو منافسة لمعاصره أبى العتاهية الذي اشتهر

بشعره في التقوى والزهد . ولكن لا سبيل لنا إلى هذا الزعم ،
وجلسة متأملة هادئة إلى هذه المقطوعات تقنعنا بأنها لم تصدر عن متصنع
يباهى أو ينافس وترغما على التسليم بحرارتها وإخلاص عاطفتها .
وأبو العتاهية نفسه يروون أنه تأثر من بعضها تأثراً كبيراً حين سمعها
وتمنى لو كانت له ، وما كان ليتمنى ذلك لو رأى فيها مجرد تصنع كاذب
أو مباهاة ولم يتأكد من صدقها العاطفي . وبعد فهذه بضعة مقطوعات
منها أدع للقارىء الحكم عليها

أية نار قدح القادح	وأى جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ	وناصح لو خطى الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى	ومنهج الحق له واضح
فأسم بعينيك إلى نسوة	مهورهن العمل الصالح
لا يحتلى الحوراء في خدرها	إلا امرؤ ميزانه راجح
من اتقى الله فذاك الذى	سيق إليه المتجر الراجح
شمر فسا في الدين اغلوطه	ورح لما أنت له رائح

أيارب وجه في التراب عتيق	ويا رب حسن في التراب رقيق
ويا رب حزم في التراب ونجدة	ويا رب رأى في التراب وثيق
أرى كل حى هالك وابن هالك	وذا نسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك ظاعن	إلى منزل نائى المحل سحيق

إذا امتحن الدنيا ليب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

يا بني النقص والعبر وبني الضعف والخور
وبني البعد في الطبا ع على القرب في الصور
والشكول التي تبا ين في الطول والقصر
احتساء من الحرا م وختما على الصرر
أين من كان قبلكم من ذوى البأس والخطر
سائلوا عنهم المدا من واستبحثوا الخبر
سبقونا الى الرحيل وإنا على الأثر
من مضى عبرة لنا وغدا نحن معتبر
إن للموت أخذة تسبق للمح بالبر
فكأنى بكم غدا في ثياب من المدر
قد نقلتم من القصور ر الى ظلمة الحفر
حيث لا تضرب القبا ب عليكم ولا الحجر
حيث لا تظهرون فيه لله ولا سمر
رحم الله مسلماً ذكر الله فازدجر
غفر الله ذنب من خاف فاستشعر الحذر

لا تفرغ النفس من شغل بدنياها رأيتها لم ينلها من تمنهاها
 إنا لننفس في دنيا مولية ونحن قد نكتفي منها بأدناها
 حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه فانه ملبس نازعته الله
 يا بؤس جلد على عظم مخرقة فيه الخروق إذا كلمته تاهها
 يرى عليك به فضلا يبين له ان نال في العاجل السلطان واجهاها
 مثن على نفسه راض بسيرتها كذبت يا خادم الدنيا ومولاها
 أنى لأمقت نفسى عند نخوتها فكيف آمن مقت الله إياها
 أنت اللئيم الذى لم تعد همته إشار دنيا إذا نادته لبهاها
 يارا كب الذنب قد شابت مفارقة أما تخاف من الأيام عقبهاها

رضيت لنفسك سوءاتها ولم تأل جهدا لمرضاها
 وحسنت أقبح أعمالها وصغرت أكبر زلاتها
 وكم من طريق لأهل الصبا سلكت سبيل غواياتها
 فأى دواعى الهوى عفتها ولم تجر فى طرق لذاتها
 وأى المحارم لم تنتهك وأى الفضائح لم تاتها
 وهذى القيامة قد أشرفت تريك مخاوف فزعاتها
 وقد أقبلت بمواعيدها وأهوالها فارع لوعاتها
 وإنا لفي بعض أشراطها وآياتها وعلامتها
 تبارك رب دحا أرضه وأحكم تقدير أقواتها

وصيرها محنة للورى تغر الغوى بغزواتها
فما نزعوى لا عاجيبها ولا لتصرف حالاتها
تنافس فيها وأيامها تردد فينا بآفاتها
أما يتفكر أحيائها فيعتبرون بأمواتها؟

سكن يبقى له سكن ما لهذا يؤذن الزمن
نحن فى دار نخبونا ببلاها ناطق نحن
كل حى عند ميته حظه من ماله الكفن

ليس هذا نظم صانع متكلف ينمق العبارة ليقال له أحسن وأجاد، بل هذه نفثات رجل مصدور همه أن يفرج عن عاطفته المحبوسة بأقرب عبارة تصل إلى قريحته وإن كان فيها بعض التهافت والتكرار، ولو كان قصده أن ينافس غيره لتمهل ونقح. والمتأمل فى شعره هذا وأمثاله يجد كرها حقيقيا لحياة الفساد وعيوقا للذة الجسدية واشمئزازا منها واحساسا قويا بالامتعاظ والسأم وعدم الرضى وشعورا بقصور اللذة وقلة غنائها وسرعة زوالها وما تخلفه من الانقباض والحسرة والمرارة وفزعا صادقا من مغبة الاثم. والمطلع على مقطوعاته فى باب الزهد يستكشف كثرة تفكيره فى الموت ورعبه من هذا الخاطر المخيف : أنه صائر الى الموت والبلى وما يتبعه من النشر وهول الحساب. ويبدو أن أبا نواس فى شدة حساسيته وإرهافه العصبي تجسم له الموت فى هذه الفترات تجسما مرعبا بلغ حد المرض العصبي

أو توهم الأشباح . وله في تصوير هوله أبيات من أعنف الشعر
العربي في موضوعها

ألا تأتي القبور صباح يوم فتسمع ما تخبرك القبور
فإن سكونها حرك تنادى كأن بطون غائبها ظهور

وعظمتك أجدات صمت ونعتك أزمنة خفت
وتكلمت عن أوجه تبلى وعن صور سبت
وأرتك قبرك في القبور وأنت حي لم تمت

لدوا للهوت وابنوا للخراب فكلكمو يصير إلى ذهاب
لمن نبى ونحن إلى تراب نعود كما خلقنا من تراب
الا ياموت لم أر منك بدا قسوت فما تكف وما تحاي
كأنك قد هجمت على حياتي كما هجم المشيب على الشباب
وأنك يازمان لذو صروف وأنك يازمان لذو انقلاب
وهذا الخلق منك على وفاز وأرجلهم جميعا في الركاب

الموت منا قريب وليس عنا بنازح
في كل يوم نعي تصيح منه الصوايح

تشجى القلوب وتبكي مولولات النوايح
حتى متى أنت تلهو في غفلة وتمازح
والموت في كل يوم في زند عيشك قاذ
فاعمل ليوم عبوس من شدة الهول كالح
ولا يفرنك دنيا نعيمها عنك نازح
وبفضها لك زين وجبها لك فاضح

اصبر لمر حوادث الدهر فلتحمدن مضبة الصبر
وامهد لنفسك قبل ميتهها واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكان أهلك قد دعوك فلم تسمع وأنت محشرج الصدر
وكانهم قد قلبوك على ظهر السرير وظلمة القبر
ياليت شعري كيف أنت على ظهر السرير وأنت لا تدري
أوليت شعري كيف أنت اذا غسلت بالكافور والسدر
اوليت شعري كيف أنت اذا وضع الحساب صبيحة النشر
مرة اخرى نجد آدميا مرعوبا ينفس عن مخاوفه تنفسيا مباشرا
لا يجود عبارة ولا يزوق اسلوبا .

وقد آن ان ننعم النظر في هذه الظاهرة العجيبة وان نحاول فهمها

وتعليقها . أبو نواس ، هذا الشاعر المشهور بعيبه واستهتاره المقبل
على مسرات الحياة المتهالك على لذائذها المفتون بأفراحها وأضوائها
نراه في هذه القطع وقد انتابته نوبة عنيفة من اسوداد الفكر وحلكة
النفس فأحس إحساسا قويا بالجوانب المظلمة من الحياة البشرية وغشيت
نفسه من اللذة واستشعها وتجسم له هول الموت وسوء مغبة الفساد .
وأبو نواس ، ذلك الرجل الذي انفق حياته في ارتكاب المعاصي
وتحدى الدين ينبعث في صميم نفسه في بعض حالاتها شعور ديني قوى
فينبهر انهارا صادقا بعظمة الله وينتشي نشوة رائعة بصدق الدين
ويستجيب استجابة حارة لاحساسات التعبد والخشوع والتقديس .
فهل هو في إحدى الحالتين غيره في الأخرى وهل طرأ على نفسيته
انقلاب جوهرى وهل انتقل من نقيض في طبيعته إلى نقيض ؟
الجواب بالسلب ، فهو لا يزال ، وجوهه نفسيته واحد لم
يتغير ، وطبيعته الشعورية ثابتة لم تنقلب بين نقيضين . هو نفس
الرجل المتوفى الشعور وهو نفس الشاعر المشحوذ الشعرية العنيفة
الاستجابة ، وإنما تغير مجال تأثيره وتغيرت الدواعي التي تلبسها عواطفه
الثائرة الدائمة الاضطراب ، ولكن استجابته واحدة وهي استجابة
الانفعال المرهف ، فمرة ينفع باللذة انفعالا عنيفا ومرة ينفع
بالدين انفعالا عنيفا ، والطاقة النفسانية التي ينفعها في الانفعال الأول
هى عين الطاقة النفسانية التي ينفعها في الانفعال الثانى . فسواء نظم في
الحمر والخمران ومجائس اللهو أو نظم في التقوى والزهد وعبادة الإله

فطبيعته العنيفة النائرة هي كالكهرباء جوهرها واحد وإن تعددت
منافذ طاقتها وتنوعت مجالات استخدامها .

أبو نواس العابد الورع المنتشى بنشوة الدين هو أبو نواس الفاسق
المستهتر المنتشى بنشوة الجسد . فما هاتان النشوتان العجيبتان اللتان
يتسنى لبعض الناس أن ينتقل من إحداهما إلى الأخرى ؟ وأى شبه بينهما
يجعل هذا الانتقال أمرا ممكنا ؟

قد يظن البعض أنهم يتخلصون من هذه المشكلة إذا قرروا أن
أبا نواس إنما زهد وعبد في أخريات أيامه فهما مرحلتان مختلفتان
من حياته ولا عجب أن ينتقل من نقيض إلى نقيض . ولكن حتى لو
سلمنا بهذا الفرض فهو يترك المشكلة حيث كانت ، فإنه يتبقى علينا أن
نسأل : كيف تسنى له في مرحلة من حياته أن ينتقل إلى طبيعة مناقضة
لما كان عليه في مرحلة أخرى ؟

ثم إن هذا فرض غير صحيح . غير صحيح أن أبا نواس نظم
جميع مقطوعاته في الزهد والعبادة في فترة توبة نهائية ختمت بها حياته .
فحياته ما ختمت بهذه التوبة النهائية المزعومة وإنما ختمت بالتحسر
العظيم على الخمر حين حرم عليه الأمين شربها فأوقع هذا التحريم به
لوعة شديدة وكربا زائدا عاجلا بموته . ولقد ظل حتى أيامه الأخيرة
يتعطش إليها ويحن إلى الغلمان ولم يحدث له قبل سكرة الموت أن تاب
عنهما توبة لارجعة فيها ، وإنما كان يعافهما في فترات متقطعات تعاورته

طول حياته ثم يعود اليهما كاظماً ما كان . فأشعاره في الزهد موزعة
على شتى الفترات التي تخللت حياته كلها وليست محبوزة على مرحلة
واحدة نهائية ختمت بها حياته .

وقد نرى في بعض هذه المقطوعات ما يدل على انها نظمت في
شيخوخته ، مثل قوله

انقضت شرقي ففقت الملاهي إذ رمى الشيب مفرقي بالدواهي
وقد يكون من المعقول أن ننتظر ازدياد ندمه وتكاثر فترات
توبته وتقاربها كلها امتد به العمر وعانى جسمه آلام الافراط ،
ولكننا لا نعرف من سيرته انه انقطع انقطاعاً نهائياً عن الخمر قبل
أن يحرمها عليه الأمين ، وحتى بعد ان منع منها ظل يواصل الغلمان
ويجد فيهم بعض العزاء عنها

أعاذل اعتبت الامام وأعتبا	وأعربت عما في الضمير وأعربا
وقلت لساقينا أجزها فلم يكن	ليأني أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عنى سلافا ترى لها	إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطنبا
إذا عب فيها شارب القوم خلته	يقبل في داج من الليل كوكبا
يدور بها ساق أغن ترى له	على مستدار الأذن صدغا معقربا
سقاها ومناني بعينه منية	فكانت على قلبي ألد وأطيبا
واليك الآن هذه القطعة الرائعة	المحزنة التي تصور مدى لوعته
حين حرم الخمر ومبلغ تعطشه إليها	

أيها الرائيحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما
 نالني بالملام فيها امام لا أرى في خلافة مستقيما
 فاصرفها الى سواي فإني لست الا على الحديث نديما
 ان حظي منها اذا هي دارت ان أراها وان أشم النفسما
 فكأنني وما أحسن منها قعدى يزين التحكيما
 كل عن حمله السلاح الى الحر ب فأوصى المطيق ألا يقيما !
 انظر اليه يتتبع كأشها الحبيبة وهي تدور على رفاقه بلهفة في عينه
 وغصة في حلقة ، ويصل الى أنفه شذاها العبق المثير فيكون كل نصيبه
 منها ، وهو نصيب يزيد عليها حسرات . واستمع اليه يصل ألمه الى
 غايته فيلجئه الى هذه السخرية الباردة في بيتيه الآخرين . فليس هذا
 رجلا لم يتب عن الخمر فحسب ، بل هو يظل يحض عليها غيره حين
 حجز عنها قسرا .

ثم انظر في شعره الذي نظمه في شيخوخته ، انظر مثلا في قوله
 أفنيت عمرك والذنوب تزيد والكاتب المحصى عليك شهيد
 كم قلت لست بعائد في سورة ونذرت فيها ثم صرت تعود
 حتى متى لا ترعوى عن لذة وحسابها يوم الحساب شديد
 وكأني بك قد أتتك منية لا شك ان سبيلها مورود

ألا يدل على صحة ما قلناه ، انه تكررت منه محاولات التوبة
 طول حياته وانها كانت تنتهي بارتداده ؟ تأمل في بيته الثاني ، ثم انظر

كيف يدل بيتاه الأخيران على انه هو ينتظر من نفسه ان تعصيه مرة
اخرى فتعود الى ضلالها القديم ، وينتظر ان يظل هذا شأنه حتى
يفاجئه الموت . ونفس الفكرة قد تجلت في قطعته الجميلة التي نظمها
حين عاد من الحج واقبل عليه الناس يهنئونه بهذا الصلاح الجديد
ويرجون ان يدوم تنسكه . ولكنه كان اعرف بنفسه من ان يصدق
بهذا الامكان

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم ارجو الإله واخشى طيننا باذا
وانظر أخيراً في هذه المقطوعة من باب الخمریات

خفيت عليك محاسن الخمر	أم غيرتك نوائب الدهر
فصرفت وجهك عن معتقة	تفتت عن در وعن شذر
يسعى بها ذو غنة غنج	متكحل اللحظات بالسحر
ونسيت قولك حين تشربها	فتزول مثل كواكب النسر :
« لا تحسبن عقار خابية	والهم يجتمعان في صدر ،

واضح أنه نظمها بعد انتهاء فترة من فترات التوبة التي ذكرناها
حين عاد إلى الخمر والغلمان كأشد ما كان ظمأ إليهما ، فتراه يلوم نفسه
على هجرهما ويتعجب من استطاعته سلوهما .

✓ من كل هذه الشواهد يتجلى خطأ القول بأن جميع شعره في الزهد
نظم في مرحلة واحدة ختمت بها حياته . هو إذن قد نظمها في نوبات

متعددة متفرقة ألمت به في مختلف احدات عيشته . بقي طول عمره
يتراوح بين اللذة والندم ويتعاقبه العصيان والتوبة . وبهذا نعود إلى
المشكلة : كيف استطاع ان يتقلب بين النشوتين نشوة الدين ونشوة
الشهوة ؟

على أننا الآن نقدم أقوى حججنا وأغربها أيضاً ، فنتأمل في فترات
ثالثة امتزجت فيهما النشوتان في آن معاً .
فهو في بعض أحواله النفسية يفعل انفعالا مختلطاً مكوناً من
نشوة الدين الروحية التعبدية ونشوة اللذة الحسية الشهوانية ،
والنشوتان مقترنتان في وقت واحد متفاعلتان تنصب إحداهما في الثانية
وتزيد كل منهما من ارهاق الأخرى وتوترها .
وهذا ادعاء سيبدو مستحيلاً للذين يعتقدون بتنافي النشوتين ،
ولكن ندع شعره يثبت صحة ما نزعم . تأمل في قوله

آذنك الناقوس بالفجر وغرد الراهب في العمر
وحن مخمور إلى خمرة وجاءك الفيث على قدر
واطردت عيناك في روضة تضحك عن خضروعن صفر
فعاط ندمانك من خمرة مزاجها من معرق القطر
يهيجه قرع النواقيس وتشجيه تلاوة الراهب لصلواته الدينية في
بيعته فيهيج فيه ذلك حنينه إلى الخمر .
وتأمل في أبياته المنتشية الطروب :

أنا والله مشتاق إلى الحيرة والخمر
وأصوات النواقيس على الزيرات بالفجر
ومشتاق إلى الحانا ت يوم الذبح والنحر !
ومفن في طلاب المر د والخمر معا وفري

يشتاق إلى خمر الحيرة وإلى سماع أصوات النواقيس في وقت معا ،
يلذ له أن يستمع إلى أنغامها الشجية تثير فيه الأحاسيس الدينية فيتوق
إلى شرب الخمر من دنائها ، ويأتي يوم الذبح والنحر وهو عاشر ذى
الحجة فيبعث فيه الشوق إلى الحانات وما فيها من خمر وغلان .

واستمع الآن إلى قصيدته البديعة :

دع البساتين من آس وتفاح واعدل هديت إلى ذات الاكبراح
اعدل الى نقر دقت شخوصهم من العبادة الانضو أشباح
يكررون نواقيساً مرجعة على الزبور بامساء واصباح
تبعد بسمعك عن صوت تكرهه فلسنت تسمع فيه صوت فلاح
الا الدراسة بالإنجيل من كتب ذكر المسيح بابلاج وافصاح
يا طيبه وعتيق الراح تحفتم بكل نوع من الطاسات رحراح
يسقيكها مدج الخصرين ذو هيف اخو مدارع صوف فوق امساح

هذه القطعة الفنية المطربة تصف المام نوبة من نوبات الزهد به
حين عافت نفسه الدنيا ولذائدها فخرج مسارح اللذة الدنيوية ولجأ الى
دير حنة يتأمل رهبانه في صومعاتهم ، فيتأثر تأثراً شديداً حين يرى

انكبابهم على العبادة واجهادهم نفوسهم في التنسك حتى تحفت أجسامهم
فهي كالأشباح ، فيبتعث منظرهم فيه رهبة دينية قوية ، ثم يستمع الى
ترجيع نواقيسهم تدعوهم الى الصلوات ويستمع الى ترنمهم الشجي في
انشاد المزامير أو ترتيل الصلوات للسبيح ، فهيج فيه هذا كله نشوة
دينية قوية تسمع لحينها صدى مشجيا في تنعيم أبياته وأريحية قافيته .
ولكن - الام تقوده هذه النشوة ؟ سرعان ما تثير فيه النشوة الأخرى
فتستجيب لها وتتحد معها اتحادا عجيباً تجده في البيتين الأخيرين .
يثور به عطشه الى الراح ، فإذا أقبل بها اليه هذا الراهب الفقي النحيل
المتصوف نظر اليه نظرة تمتزج فيها العاطفتان امتزاجا ينطق به البيت
الأخير . فهو مروع بروحانيته وتقشفه وخشونة ملابسه الصوفية ،
وهو في نفس اللحظة مفتون بنحافة خصره ورشاقة قامته ، وكلا
الافتنانين يجاوب أحدهما الآخر ويرهف حده . وهذه الشعور المزدوج
هو ما يحسه بعض الناس حين يلقون الراهبات فيروعهم منظرهن
الروحاني الطاهر وما يحف بهن من براءة التبتل ولا يملكون أنفسهم
أن تستثار فيهم شهوة جسدية قوية في نفس الوقت .

وعد الآن الى مقطوعته في الزهد :

أية نار قدح القادح وأى جد بلغ المازح
تجد نفس الاقتران بين الشهوة الجسدية والنزعة الروحية في قوله :
فاسم بعينيك الى نسوة مهورهن العمل الصالح

لا يمتلي الحوراء في خدرها الا امرؤ ميزانه راجح
 انظر الى تسميته الحور العين نسوة وتأمل في صورته « الاجتلاء
 في الخدر » ، ولكن انظر كيف يقترن هذا بـ « السمو » وبـ « العمل
 الصالح » ، وبـ « الميزان الراجح » وكيف يرد في صميم قصيدة كلها زهد .
 وتذكر الآن ما فصلنا القول فيه في الفصل الأول عن اثاره الخمر
 لإحساسات التعبد والتقديس في نفسه ، وعد الى أناشيده الخمرية التي
 رويتنا بعضها والتي هي أشبه بالصلوات الدينية ، نترنم بها فتهز معها
 أجسامنا ويصيب عقولنا دوار يشبه انتشاء الصوفية في حلقات ذكرهم .
 ثم استمع أخيرا الى القصيدة الآتية ، وهي من أبرع ما نظمه وأشده
 اثاره للشمل الفنى ، وفيها تجمد مرة أخرى امتزاج النشوة الدينية
 والنشوة الجسدية :

بعمودية الدير العتيق	بمطربليطها بالجاثليق
بشمعون بيوحنا بمى	بمارى سرجس القس الشفيق
بميلاد المسيح بيوم دنح	بباعوث لتأدية الحقوق
بأشمونى وسبع قدمتهم	وما حادوا جميعا عن طريق
بمارت مريم ويوم فصيح	وبالقربان والخمر العتيق
وبالصلبان ترفصا رماح	تلاّلا حين تومض بالبروق
بمحجك قاصدا ماسرجسان	بدير النوبهان فدير فيق
وبالمطران اذ يتلو زبورا	يعظمه ويبيكى بالشهيق

بهيكل بيعة الله المفدى
وبالناقوس في البيع اللواتي
برهبان الصوامع في ذراها
بأيام السعائين المبدى
وبالصلب العظيمة حين تبدو
وبالحسن المركب فيك إلا
أما والقرب من بعد التناثي
لقد أصبحت زينة كل دير
وآذن عاشقوك إلى النصارى
من الاسلام طرابالمروق! (١)

ما أظن قارئاً ينشدها جهرًا بصوته ولديه المقدرة على الاستجابة
الفنية إلا وياخذ الطرب العظيم من سحر تنظيمها ويترنح ثملاً بنشوة
ألحانها. استمع إلى هذه الألفاظ الأعجمية الغريبة يتمم بها كتعاويد
السحر فتشير في عقولنا دروشة عجيبة وتذكرنا بما يسميه الإنجليز
«الشعر التعويذى» (٢) وهو الشعر الذى يردد فيه ناظمه كلمات غريبة
ويكرر مقاطع بعينها يهيم بها لسانه فتحدث بالعقل نشوة غريبة مهمة
ودوارا كالذى يحدثه الاستماع إلى تميمة الساحر بتعويذاته وعزائمه.
ولعل أبا نواس يحكى الصلوات الغريبة التى سمعها من الرهبان.

(١) اتبعنا في هذه القصيدة رواية الديارات للشابشتى مع تعديل طفيف من الروايات
الأخرى.

(٢) Incantatory verse من Incantation وهى تعويذة الساحر وتعزية أورقيته.

وتأمل في هذا الطرب الديني الصاخب يثيره فيه الجمال الخاص الذي بالمسيحية بطقوسها وصلواتها وأناشيدها ونواقيسها وبقدسيها ورهبانها وبيعها وصلبانها . وهي نشوة تنتقل إليك عدواها ان نطقت بالأبيات جهرا ولم تكتف بالقراءة الصامتة حتى ما تملك أن تمايل مع هذه المقاطع المترقصة .

ولكن انظر الام ينتهى به هذا الطرب الديني ، بل انظر بعبارة أصح إلى السبب الذي هاج فيه هذا الطرب ، هو أنه أحب فتي راهبا ! وتأمل في أبياته الخمسة الأخيرة كيف يختلط فيه الحبان ، حب المسيحية وحب الفتى ، اختلاطاً ما نظن ان بنا حاجة إلى الأطالة في تحليله بعد كل ما تقدم . ولكن تذكر أنه لا يجب في الفتى النصراني حسنه الجسدى وحده ، وانما يجب فيه أيضاً تدينه ورهبنته ، حتى يهم من فرط هذا الحب الثانى أن يترك الإسلام ليعتنق المسيحية . فان ظننت أنه إنما يقول هذا تندرا ولا يعبر عن هم حقيقى فانتظر حتى نتدبر هذه العاطفة فيه في ختام هذا الفصل .

إن كان لكل هذه الشواهد والاستدلالات مغزى فغزاها أنه لا بد أن يكون بين النشوتين الدينية والجسدية صلة ما تسهل بينهما ^{لكن} المجاورة والاندماج في بعض الناس ، وعن طريق هذه الصلة تتحول إحداها إلى الأخرى أو تلتقيان وتمتزجان . وقد آن لنا ان ندرس هذه المسألة الهامة على ضوء الحقائق التي اثبتتها علم الانثروبولوجيا وخصوصاً

فرعه العظيم علم الأديان المقارن . ولكن نبداً بأن نذكر القارى بما قلناه في الفصل الأول عن تشابه النشوتين في مظهرهما وعن تولد النشوة الدينية لدى أغلب الناس من النشوة الحسية . ثم نشير الآن الى حقيقة جديدة كبيرة الأهمية هي عبادة الجنس في الكثير من الأديان ، واعتبار الاتصال الجنسي عملاً دينياً يتقرب به الى الآلهة ويتنقى به رضاها ويتوسل الى كرمها وعطاياها ويتجنب به غضبها ويدفع سخطها واذاؤها .

والحقائق التي سنشير إليها في هذا المجال كريهة منفرة صعبة التصديق . ومنشأ الصعوبة أننا حين نتحدث عن الدين ننظر في أغلب الأمر الى دين رفيع مطهر مثل الإسلام . ولكن كيانهم العاطفة الدينية فهما كاملاً نحتاج الى أن نتحرى أصلها البشري في الأديان البدائية ثم نتبعها في مراحل ترقيا وتهذيبا حتى تصل أطهرها في الأديان السماوية وتصل طهارتها العليا في آخر هذه ظهوراً وهو دين الإسلام .

فالدين السماوي لم ينشأ في البشر نزعة تعبدية لم تكن موجودة فيهم من قبل ، فان سعى البشر الى الإله سعى غريزي قديم ، ولقد حاول البشر منذ أزمان سحيقة أن يصلوا الى الإله بمجهودهم الخاص فتصوروه في صور مختلفة وعبدوه بوسائل متعددة . ولكن ما بقي سعيهم مقصوراً على جهدهم الإنساني ظل ناقصاً مليئاً بالتشويه والفساد ،

فينزل إليهم الدين السماوى صافياً طاهراً من لدن الإله الواحد الحق ،
ولكن البشر ما يلبثون أن يلحقوا به ادرانا بشرية وشوائب ارضية ،
فيحتاجون إلى أن ينزل إليهم دين سماوى آخر يعيد إلى الدين صحته
واستقامته ويظهره من الوصمات التى لطنه بها الأدميون ، وهذا سر
تعدد نزول الأديان السماوية .

فى هذا الموضوع تقول « دائرة معارف الدين والأخلاق » تحت
مادة « عبادة الرموز الجنسية » (١) : « هذه العبادة تكون جزءا كبيرا
جدا من تعبد الجماعات البدائية وتعبد الجماعات المتقدمة أيضا . وهى
عبادة تبدو لنا فى درجتنا الرفيعة من الحضارة غريبة منفرة ، ولكن
من الواضح أننا لا يجوز لنا أن ننكر وجودها أو ننكر أهميتها الحقة
كوشيجة اجتماعية لمجرد بعدها عن اعتقادنا فيما ينبغى أن تكون عليه
العبادة أولشئناعتها إذاقورنت بأداب السلوك عندنا أولأن محط عبادتها
يبدو لنا خاليا من عنصر الألوهة . فإن البشر فى تصورهم للقوى
الإلهية قد تعبدوا بوسائل كثيرة شديدة التنوع والكثير منها بالغ
الغرابة والقسوة . »

وأمثلة هذه العبادة كثيرة جدا متعددة بتعدد أجناس البشر وقبائلهم
وتقاليدهم ومراحلهم من البداوة أو الحضارة . والأمثلة التى تختارها
دائرة المعارف المذكورة تشغل أكثر من أربع عشرة صفحة من

صفحاتها ذات الحجم الضخم والحروف الدقيقة . ولا نريد أن ننساق في استطراد آخر طويل ، والقارىء المهتم بهذا الموضوع يستطيع أن يرجع الى تلك المادة . فيكفيها هنا ان نقول ان هذه العبادة تتلخص في صنع اقانيم للأعضاء الجنسية ، او نحت تماثيل لأجساد عارية للرجال او النساء تضخم فيها الأعضاء الجنسية تضخما زائدا ، ويقيمون لها صلوات يكون الاتصال الجنسي بين رجال الجماعة ونسائها جزءا اساسيا من طقوسها . او هم يحملون هذه الاقانيم معلقة على اجسامهم واجسامهن كتمائم يتعوذ بها .

قد يسأل القارىء : كيف نشأت هذه العبادة الغريبة والام تهدف ؟ والجواب أن هذه الاقانيم والتماثيل المضخمة ترمز في حقيقتها إلى قوى الانتاج في الطبيعة ، إلى قوى الخلق والاحياء والتكاثر ، إلى القوى التى تكثر النسل البشرى وتغزر الماشية وتخصب الأرض وتضاعف المحصول وتنمى كلها ما هو لازم لرخاء القبيلة وغناها من الأولاد الكثيرين والفواكه والحبوب والحيوان النافع والأمطار المحيية والشمس المنضجة ، ويراد بعبادتها التغلب على قوى الجذب والجفاف والانقراض والفناء ، ويكثر وقوع هذه الأعياد الدينية الجنسية في مواسم الفرس ومواسم الحصاد وفي الاحتفال بنضوج الفتي والفتاة ودخولهما طور المراهقة وفي الاحتفال بمجيء الربيع . وفي بعض الجماعات يأمر الكهنة الزارع وزوجته أن يتصلا

اتصالاً جنسياً على الحقل قبل بذر البذور أو بعده مباشرة أو قبيل الحصاد ، وهم يعتبرون هذا طقساً دينياً واجب التنفيذ وبدونه لا تطيب الأرض ولا تكثر غلة المحصول ، فلا أرض أيضاً انثى تفلح ثم تنتج ويساعد انتاجها أن يقوم عليها الآدميون بهذا الطقس .

وفي الكثير من هذه الاحتفالات تختلط عبادة الخمر (انظر الفصل الأول من كتابنا هذا) بعبادة الجنس ، ويكثر الرقص الدينى الجنسى . ولكننا يجب أن ندرك أن أصحابها لا يقصدون فى الأصل إفحاشاً ولا تهتكاً بل يعتقدون أنهم يؤدون شعائر دينية جلية وتلتابهم نوبة عجيبة من الحمية الدينية .

وكثير من هذه الأديان البدائية تتخذ إلهة للجمال تمثل الأنوثة الناضجة ، أو تتخذ ما يسمى بالإلهة الأم أو أم الجميع ، وتكون تمثال أم حامل أو أم تحمل ولدها تعبد إليها النساء لتشفين من العقم أو تخفف عنهن آلام الوضع المتعسر . وعلماء الأنثروبولوجيا يرون أن هذا أصل عبادة المسيحيين للإله الابن وتقديسهم لأمه كما سنرى بعد قليل .

ويصل الأمر ببعض الديانات ، وخاصة فى الهند ، أن تتخذ فى معابدها نساء يسمين « العاهرات المقدسات » ، يعن أجسادهن فى حرم الهيكل إلى المتعبدين فى نظير أجور يتقرب بها إلى إلهة الخصب والإنتاج ، ويعد هذا الاتصال طقساً دينياً يتقرب به إلى هذه الإلهة

لإرضائها واستئزال بركتها . وفي بعض القبائل الهندية يفرض على كل أسرة ان تعطى من بناتها بنتاً واحدة على الأقل إلى المعبد تقضى فيه حياتها في هذه الخدمة .

هذه هي الاصول البشرية الدنسة للعبادة في الاديان الارضية . فلننظر الآن كيف يستبقى أهل الدين السماوى كثيراً من عاداتهم القديمة ويلصقونها بدينهم الجديد ويلبسونها مسوحة حتى ينتهوا إلى ان يعدوها جزءاً مقدساً منه . ولنبدأ بالمسيحية .

فعبادة المسيحية الكنسية للإله الابن وتقديسها لأم الإله استكشف علماء الدين المقارن اصولها في الكثير من الاديان البشرية التي انتشرت في الشرق وحوض البحر الابيض المتوسط ، وهم يعطون اسماء الآلهة والإلهات السابقة وهي كثيرة متعددة الاسماء ولا مجال لذكرها هنا . والتماثيل والاقانيم والصور التي صنعها المسيحيون للإله الابن وامه مستعارة في اصلها من نحوت تلك الديانات .

وكثيرون من العابدين المسيحيين في تقريبهم إلى هذه التماثيل والصور ينفسون عن إحساس جنسى لا شك فيه وان يكن باطنا لا يدركونه هم ولعلمهم يذعرون ويستنكرون إذا نهوا إليه . وكثير من هذه الصور والنحوت لمريم العذراء او للملائكة تبلغ درجة عظيمة من الجمال الفاتن ، فلا عجب ان تثير في بعض متعبيها ما اشرنا إليه . وبعضها يمتزج فيه جمال الجسم البشرى وروعة السمو الدينى امتزاجاً فذاً .

وكثير من الصلوات المسيحية الذائعة وانشيد التسبيح hymns التي يقدس فيها يسوع الإنسان او مريم العذراء ويتغنى بجهما يستكشف فيها العنصر الجنسي الكامن . وبعض المشهورين من عظماء الرهبان والقديسين في مختلف عصور التاريخ الفوا صلوات في التضرع إلى مريم العذراء ليست إلا تنفيسا عن شوقهم الجنسي المكبوح ، وبعض هؤلاء كانوا قبل بدء تبتلهم شبانا عارمى الشهوة الجنسية غارقين في لجاج الاثم والعريضة فلما ترهبوا حولوا حميتهم هذه إلى تلك العبادة ، وهى ظاهرة سنعود إلى تحقيقها بعد صفحات .

وقل نظير ذلك عن عبادة القديسات والراهبات ليسوع ، والتاريخ قد حفظ لنا الكثير من اخبارهن وصلواتهن ، بل انظر في تسميتهن يسمين « عرائس المسيح » Brides of Christ ويسمى المسيح عروسهن السماوى The Heavenly Bridegroom ويقال أنهن بتبتلن يحفظن أجسادهن طاهرة عذراء حتى يقدمنها إلى المسيح — هذا أسلوبهم فى التعبير . وآخر ما اطلعت عليه فى هذا الميدان قول متصوفة فرنسية معاصرة فى كتاب تعبدى لها أنها كانت تقرأ قصيدة « الحب » لجورج هربرت ، فتقول « فنزل المسيح نفسه وامتلكنى » (١)

(١) « Christ Himself came down and took possession of me. » Simone Weil : Waiting on God .

هذا والقارىء الذى يريد أن يطلع على مثال فظيع للتبوس الذى تبلغه بعض الراهبات =

وفي القرون الوسطى كان عامة المسيحيين في بعض أنحاء بلجيكا وفرنسا وغيرهما يعبدون قديسين هم في حقيقتهم رموز جنسية قديمة ويعتقدون أنهم يشفون العنة والأمراض السرية ويكثرون النسل . وقد استمرت هذه العبادات إلى عصور حديثة حتى حرمتها السلطات الكنسية .

وتلك التماثيل والأقانيم الجنسية الصريحة التي صنعها عابدوا الأديان البدائية بقى الكثير منها معلقا أو مرسوما على جدران الكنائس في مختلف أنحاء أيرلندا وبريطانيا والقارة الأوروبية في القرون الوسطى وبقيت إلى عهد حديث حتى أمرت السلطات الكنيسة بإزالتها ونزعها وإحراق معظمها ولم تبق منها إلا بضعة أمثلة يحتفظ بها في المتاحف . والقارىء الذى يريد تفصيل ذلك يستطيع ان يرجع إلى مادة « عبادة الرموز الجنسية » فى الموسوعة التي ذكرناها .

ولعل هذا من اسباب رفض الاسلام لجميع الصور والتماثيل والأقانيم

== نتيجة الكبح الجنسي يستطيع أن يقرأ آخر كتاب لالدوس هكسلى واسمه « عفاريت لودان » لندن ١٩٥٢ . The Devils of Loudun . وفيه يدرس جماعة من الراهبات الفرنسيات فى القرن السابع عشر كن ينفسن عن عواطفهن المكبوحة فى تشنجات هسترية يقمن فى أثناءها بالتواءات جسدية شنيعة ويتفوهن بألفاظ باغلة البرف . وكان سبب هذا الاضطراب أن رئيستهن واسمها الأخت جان ديزانج عشقت القس اربان جراندييه وتوددت اليه ، ولكنه احتقرها ونبذها ، فأصبحت بتلك الهستيريا وانتقلت عدواها إلى الراهبات تحت رئاستها وشجعتهم على الاندفاع كما تهمه بأنه أنزل بهن عفاريت خبيثة .

وأنا مدين للاستاذ سعد الدين فوزى بلفت نظرى إلى هذا الكتاب .

في شعائر العبادة . فهذا الدين التوحيدي الحنيف — وهذا معنى كلمة « حنيف » — يريد أن يجعل عبادة الإنسان لربه عبادة روحية خالصة مجردة من رموز الحس مطهرة عن غرائز الجسد الأصلية . ولكن تطهره اسمي من أن يستطيعه إلا القليلون من اتباعه فتري عامة المسلمين يتلمسون منفذا لنزعتهم التجسيدية في تقديس أضرحة الأولياء ولمس مقاماتهم وحمل التمايم والتعاويز والاهتزاز الجسمي في حلقات الاذكار ، وحلقات الاذكار ليست إلا بقية من الرقص الديني القديم .

ثم انظر إلى الاحتفالات بموالد الأولياء وبمختلف المواسم والأعياد الدينية وما يحدث فيها من تحلل جنسي كبير بين كثير من الفتيان والفتيات يستنكره رجال ديننا ويحملون عليه اشد الحملة ويحذرون الأمة منه على المنابر وفي الصحف كلها دنا مولد أو موسم أو عيد . ولكنها ظاهرة بدائية قديمة في النفس البشرية ترجع إلى ما رأيناه في الديانات البشرية بأعيادها واحتفالاتها ، فتنتقل هذه الغرائز القديمة في المناسبات التي ذكرناها بعنف يعسر قمعها .

والمشاهد في بعض القرى المصرية أن فتيانها ينتهزون هذه المواسم للذهاب إلى المدينة المجاورة يستمتعون بملذاتها ويزورون أحياء الفاحشة فيها وبعضهم لا يزور هذه الأحياء على طول السنة إلا في تلك المناسبات . ويشكو علماء الدين في السودان من أن أضرحة الأولياء يتخذها بعض الشبان والشابات موضعاً للتلاق والمغازلة . وهذا أيضاً يخيل إلينا أنه ارتداد إلى التقليد القديم .

على أن هذه جميعاً أمثلة للعصيان الشعبي يخالف فيه العامة تعاليم دينهم الحنيف . فعلماء الأديان المقارنة يقررون أن الإسلام قد نجح في أن يبقى شعائره الرسمية خالية من الاقانيم والرموز التجسيدية مبرأة من شوائب الجسد والغريزة ، وجميع الأمثلة التي ذكرناها قد عجزت عن أن تجد لها منفذاً تتردد عن سبيله إلى الدين الرسمي فتلتصق به وتقبل فيه كما فعلت في أديان أخرى . ولكن علينا الآن أن نتأمل في فرقة واحدة عظيمة من الفرق الإسلامية ارتدت إلى العشق الجنسي البدائي في تعبدها الديني ، ونعني المتصوفة .

وقد يستغرب القارئ أن تكون هذه الفرقة القائمة على إنكار الحس والمبالغة في الروحانية هي التي نستكشف فيها العنصر الجنسي في التعبد ، ولكن نفس هذه المبالغة لها مغزاها كما سنرى .

فكل قارئ لا شك يعرف قدراً من شعر الصوفية ونثرهم في حب الله ، وتسميتهم إياه « العشق » ، ومناجاتهم « المحبوب » . بل هم يخاطبون الله بضمير المؤنث فيجعلونه محبوبة أو معشوقة ، وفي بعض أناشيدهم الذائعة يسمونه « ليلى » وينظمون في ليلى هذه أشعار الحب الحارة المتشوقة من أمثال « سلبت ليلى مني العقلا قلت يا ليلى إرحمني القتل الخ ... »

صحيح أنهم يدافعون عن هذا بأن يقولوا أنه مجرد رمز للعبادة الدينية الروحية لا يقصد منه التجسيم ، ولكن حتى لو قبلنا هذا

الاحتجاج فإن مجرد استعمال هذا النوع من الرمز له مغزاه الباطن ، فلم اختاروه دون غيره ؟ ثم أن الدفاع بالرمزية ليس دفاعاً كاملاً ، لأن تاريخ العقائد والأديان يشهد بأن كثيراً من أحط الصور التعبدية وأشدّها دنساً قد بدأ رموزاً طاهرة إلى معان شريفة . وسنرى الآن أهذا الأسلوب الذى يتخذونه مجرد رمز روحى لا تجسيم فيه كما يعتقدون .

تذكر الآن أقوالهم عن الفناء بالله وامتزاج العابد بالمعبود أو الحبيب بالمحبوب أو العاشق بالمعشوق . يسمونه الاتحاد ، وأضف إلى هذا الأسلوب تسميتهم الله بأثنى وانظر ماذا تكون النتيجة .

وابن الفارض — وهو من أعظم شعرائهم فى العربية ، ومن الطريف أنهم يسمونه « سلطان العاشقين » — يتحدث عن الله فى كل تأنيته العظيمة المشهورة بضمير المؤنث ، فيقول مثلاً :

جلت فى تجليها الوجود لناظرى فى كل مرئى أراها برؤية
وعلى مذهبهم فى تجلى الله فى كل مخلوق يرى أن المرأة مجلى من مجالى الله ، وأن حواء حين تجلّت لآدم ، وجميع المعشوقات حين يتجلين لعاشقين ، هن فى الحقيقة الله يتجلّى فى هذه المظاهر ، ولكن انظر طريقته فى التعبير :

فى النشأة الأولى تراءت لآدم بمظهر حوا قبل حكم النبوة
وتظهر للعشاق فى كل مظهر من اللبس فى أشكال حسن بديعة

ففي مرة لبني وأخرى بشينة وآونة تدعى بعزة ، عزت
ولسن سواها لا ولا كن غيرها وما إن لها في حسنهما من شريكة

لا شك أن ابن الفارض وقارئيه من الصوفية يعتقدون اعتقاداً
مخلصاً أن هذه الأبيات وأمثالها ليست إلا تعبيراً رمزياً ، ولكن أى
رمز هو ! وماذا يكشف عن نفوس قائله ! تأمل ملياً في مغزى قوله
« قبل حكم النبوة » ، وهل لهذا معنى صحيح سوى أنه يصف ترائها
عارية قبل أن يفرض عليها وعلى آدم تغطية العورة ؟ وتأمل إصراره
على أن يصف ظهور المعشوقات لعاشقيهن « في أشكال حسن بديعة » .
هذه رموز بكل تأكيد ، ولكن لا بالمعنى الذى يعتقدده الصوفية بل
بالمعنى الذى وجدناه في المصطلح العلى Phallism

فإن بقى في صدرك أهون شك فاستمع إلى ابن عربى يكشف عن
الحقيقة بأصرح التعبيرات ولا يترك بنا حاجة إلى استنباط . يقول في
كتاب « فصوص الحكم » :

« ولما أحب الرجل المرأة طلب الوصلة ، أى غاية الوصلة التى تكون
في المحبة ، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح ،
ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها ، ولذلك أمر بالاغتسال منه ، فعمت
الطهارة كما عم الفناء فيها عند حصول الشهوة ، فإن الحق غيور على عبده
أن يعتقد أنه يلتذ بغيره ، فطهره بالغسل ليرجع بالنظر إليه فيمن
فتى فيه إذ لا يكون إلا ذلك . فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة كان

شهودا في منفعل ، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة ، فشهوده في المرأه أتم وأكمل لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة . فلهذا أحب صلى الله عليه وسلم النساء لكمال شهود الحق فيهن ، إذ لا يشاهد الحق مجرداً عن المادة ابداً .

ما احسب هذه القطعة من هذا الصوفي العظيم إلا تهدم احتجاجهم بالرمزية هدماً تاماً . فهو كما ترى يصرح بأن المواقعة المادية المعروفة بين الرجل والمرأة ، هي أعظم اتصال بين العبد وربّه ، فالعبد في الحقيقة قد التذ بخالقه وان خيل اليه أنه التذ بالمرأة . وهذا ارتداد تام إلى ما اعتقده أهل الديانات البدائية التي استعرضناها .

وليس من عملنا في هذا الكتاب الرد على هؤلاء القوم أو شرح مقدار مخالفتهم لروح الإسلام الخفيفة المتطهرة (١) ، وكل ما يعنيننا أنهم يقدمون لنا مثلاً جديداً للخلط بين العاطفة التعبدية والغريزة الجنسية

(١) انظر في هذا الموضوع رسالة (صوفيات) للاستاذ عبد الرحمن الوكيل ، من مطبوعات جماعة أنصار السنة المحمدية ، القاهرة ١٩٤٩ . ونحن مدينون لهذه الرسالة بلفت نظرنا إلى هاتين القطعتين الهامتين . ويستطيع القارئ أن يرجع إليها أن أراد أمثلة أخرى . وكاتبها يقرر أن هذا الشعور تكمن وراءه « نزوات ملهية » ، و « أن الصوفية لما يئسوا من المرأة في الواقع نشدوها في الخيال ثم صور لهم غليل الحرمان أنها هي تلك الذات الالهية » ص ١٩ .

في نفوس الكثيرين من البشر . وما نطن القارىء إلا قد اتضح له الآن سبب هذا الخلط ، وهو تشابه النشوتين في قوتهما وعنقهما ، فكلاهما بالغة الحدة تصل بالأعصاب إلى أقصى حالات التوتر والهياج ، فسهل على السذج ان يخلطوا بينهما ويعتقدوا انهما من معدن واحد ، وسهل على ذوى الأعصاب المريضة ان يحولوا احدهما إلى الأخرى ، أو يمزجوا بين كليهما في وقت واحد . وفي القصة الأمريكية المشهورة « أعناب السخط »^(١) تحليل جيد لواعظ ديني مخلص التدين ، ولكنه شديد الشهوة ، وكلما هاجت به حميته الدينية في حلقات وعظه ثارت رغبته الجنسية ، فاصطحب إحدى الفتيات اللاتي حضرن خطبته إلى الحقول المجاورة ، وكلما ازدادت نشوته الأولى حدة ازدادت نشوته الثانية طغيانا وتصرفه مع الفتيات جموحا . ولكنه كان كما قلنا مخلص التدين ، فأحزنه هذه الظاهرة احزانا عظيما ، وانتهى إلى نبذ الوعظ الديني نبذا تاما .

ونستطيع الآن ان نلتفت إلى ظاهرة مشهورة في تاريخ الأديان ، وهي كثرة حدوث التحول Conversion في سير القديسين والأولياء وكبار الزهاد والعباد .

فبعض هؤلاء كان في مبدأ شبابه عنيف الشهوة مهالكا على ملذات

الحياة ومفاتن الجسد مطلقا لنفسه عنان الاستهتار ، ثم حدث له تحول عنيف نقله إلى الطرف الآخر من الاسراف في التعبد والمغالاة في النسك والتبتل فقطع نفسه بحدة زائدة عن كل متع الجسد حلالها وحرامها وانثنى على جسده يضنيه إضناء ثائراً ويعذبه أقسى العذاب بالسهر المتصل والصوم الطويل المرهق وغيرهما من وسائل التقشف المفرط . والامثلة كثيرة في تاريخ المسيحية ولا يخلو تاريخ الإسلام منها . وعكس هذا أيضاً حدث ، حدث أن ارتد بعض الرهبان من حياتهم المتسكة إلى حياة الخلاعة المفحشة فصاروا فتاكاً بعد أن كانوا نساكاً .

ونفس الظاهرة تلاحظ في سير الكثيرات من القديسات والعابدات . فلنسمع ما يقوله الدكتور عبد الرحمن بدوي عن أحدهن وهي رابعة العدوية ، وهذه صوفية عظيمة الشأن كانت في مبدأ أمرها مومساً :

« ويخيل إلينا أنها قطعت شوطاً طويلاً في طريق الآثم وغرقت في بحر الشهوات واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة ، لأنها تابت من بعد ذلك . فهذه التوبة نفسها هي أصدق دليل لدينا على اندفاعها إلى أبعد حد في طريق الشهوة . فالأطراف في تماس كما يقولون ، والاعتدال لا يمكن . مطلقاً أن يؤدي إلى التحول الحاسم Conversion . فهذه الانقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائماً نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة في الطرف الأول المنقلب عنه . فعنف إيمان القديس بولس كان نتيجة

لغنف انكاره المسيحية ، وعنف الحياة التقية لدى القديس أوغسطين
كان لازما طبيعيا لغنف الحياة الشهوانية الحسية التي حيها قبل تحوله
إلى الإيمان . . . وما كان لرابعة أن تتطرف في إيمانها وحبها لله إلا إذا
كانت قد تطرفت من قبل في فجورها وحبها للدنيا . من أعماق الشهوة
الغنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن عمائق الانكار والتجديف
تنطلق الموجه التي تنشر الإيمان في الدنيا بأسرها (١) .

ويقول في الصفحة التالية حالها تلك التي وصفتها القديسة
تريزا الابيلوية إبان محنة صراع الدنيا والدين في داخل نفسها ،
فتمالت : « من ناحية كان الله يدعوني ، ومن أخرى كنت أشرك في
الدنيا . أجل لقد كنت أجد في الأمور الإلهية نعيما كبيرا ، بيد أن
قيود الدنيا كانت لا تزال تأخذ بمخنقي ، حتى ليبدو لي أنني قد أردت
أن أحالف بين هذين الضدين برغم ما بينهما من عداوة : الحياة الروحية
بمنعماتها ، وحياة الحواس بشهواتها . »

من هذا كله ندرك خطأ التقسيم الشائع الذي يقسم الناس إلى
زاهد ومستهتر ، فهذا تقسيم ظاهري لا يضرب إلى جوهر النفس
البشرية ، فإن الاثنين متحدان في طبيعة العنف وشدة السورة ، وإنما
يختلف مجال تنفيسهما . والتقسيم الأعمق ان نقسم الناس إلى معتدل

(١) من كتاب (شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية) ص ١٧ و ١٨ . وأنا مدين
الاستاذ عبد المجيد عابدين بلفت نظري إلى هذه القطعة .

المزاج مستقيم الطبع والى هائج الحس منحرف المزاج . فليس الزاهد رجلا ضعفت شهوته ، وإنما هو فرد قويته شهوته الجسدية قوة زائدة فكبحها كبحا صارما واستعمل حدة سورتة فى إرغام جسده على التبتل الكامل . ولو كان فاطر الشهوة أو معتد لها لما احتاج إلى المغالاة العنيفة بالانقطاع عن كل اللذائذ محرمةا ومحللها وتطبيق المتعة الجنسية حتى الحلال منها تطبيقا تاما . ومن هذا نفهم السر الذى حرم الاسلام من أجله حياة الرهبنة والتبتل . فهذه الحياة على روعتها الظاهرة ليست إلا نتيجة للمرض العصبى الذريع ، وكبحها العنيف يلحق بالنفس البشرية أضرارا فظيعة للغاية ، وهوسها الدينى نتيجة إسراف فى الشهوة الجنسية ، وقد أشرنا إلى مثل مخيف من هذا الهوس فى أخبار أولئك الراهبات الفرنسيات فى لودان ، والاسلام لا يريد الهوس الدينى ولا يشجع عليه ، بل يريد لمتبعيه حياة معتدلة سليمة تمتع الجسد فى مجال المتعة الشريفة المشروعة وبالقدر المعتدل الصحيح ، وتنعش الروح فى فترات العبادة إنعاشاً بريئاً نقياً خاليا من ارتداد الغرائز والتواء الشهوة المكبوحة . الاسلام دين الاعتدال والحكمة فى الدنيا وفى الدين ، فى المتعة وفى العبادة . ونسوق أخيرا هذه القطعة من « دائرة معارف الدين والأخلاق » وفيها تأييد الحقائق التى سجلناها آنفاً :

« إذا فهمنا الدين فهما منزها رفضنا أن نسوى عاطفته بالانفعال الجنىسى والغرامى ، ولكن بينهما صلة وثيقة ، فالعاطفة حين تهيج فى

اتجاه ما يكثر تحولها إلى اتجاه آخر أو تحمل معها في مدها الطاغى أشياء لم تكن مقصودة في الأصل ، بل انها لتفيض على كل قنوات الحياة وتطمها . ومجرد قوة العاطفة الجنسية - هذه القوة التي يعتمد عليها بقاء النوع البشرى - يجعلها معرضة أكبر تعرض لاجتذاب العاطفة الدينية والاتحاد معها . وهذا ما فعلته في جميع عصور التاريخ ، وبهذا تشهد العبادات الجنسية التي درسناها ، كما يشهد الافراط الشهوانى أو التمسكى الذى يقع فيه الهوس الدينى فى كل قطر تقريباً . فكثير من هؤلاء العابدين المهوسين يحتمل التفكير الجنسى من ذهنه مكانا عظيما ، والتبتل الفردى أو الجماعى فى كل الأديان سببه الحقيقى الانشغال بالفكرة الجنسية . وقد يقود هذا التبتل إلى نتائج شنيعة كما نرى فى عبادة القديسة تريزا أو القديسة كاترين فى سينا . أو ربما تنفجر الطبيعة البشرية تحت الضغط فتجد هذه العواطف التى أريد كبسها متنفسها فى الارضاء الجسمى الشاذ . وحين تصل الشهوة الغرامية العنيفة إلى أعلى ذراها يظهر فيها عرق دفاق من التصوف نظير التصوف الذى تبلغه السورة الدينية العنيفة . فيتشابه العابد والمحب فى أنهما مدفوعان إلى الاتحاد بالمعبود أو المحبوب ، وهو اتحاد يتصور كل منهما أنه أسمى من الوصلة الجسدية وأنبل وأعظم وشيعة وأن نتيجته تكون الامتزاج بينه وبين المعبود أو المحبوب امتزاجا تاما يرفض الموجودات الأخرى ويزدريها . ولكن فى العبادة الدينية لا يستطيع العابد أن يملك معبوده امتلا كما مباشرة ، فليست لديه وسيلة

للإرضاء التام لشهوته ، ولذلك نجد هذا الانفعال في أعنف أحواله
يبلغ درجة الجنون ، وخصوصاً حين يكون معبوده من جنس مضاد .
[لعل هذا يفسر لنا لم يسمى الصوفية الله بضمير المؤنث ، وليلاحظ
القارئ العربي أن بعض كبار الصوفية قد بلغوا فعلاً درجة الجنون] .
وحتى حين لا يصل الانفعال درجة الجنون فإنه يدفع العابد إلى
مبالغات غريبة وإرضاءات شاذة يستعويض بها عن الإمتاع الذي يعجز
عن تحقيقه . وإن سير النساك القدامى وأخبار الأديرة وتاريخ كثير
من الفرق المسيحية لتشهد بهذا الفساد ، وإن لم تكن المسيحية هي
وحدها التي ابتليت بهذا الداء .

* * * * *

فإن عدنا إلى أبي نواس تتأمل في طبيعة نشوته الدينية على ضوء
هذه الحقائق والتفسيرات ، فلعلنا الآن لا نستغربها فيه ولا ننكر
صدقها ولا نرى بينها وبين جانبها الشهواني تناقضاً مستحيلاً ولا تنافياً .
فكلا الجانبين مجلي مختلف لنفسية واحدة ، وهذه النفسية طبيعتها
الجوهرية الحساسية الهائجة والانفعال المتطرف ، وصفتها في كل ما تفعل
الشر والافراط المتهوس ، تجد أحياناً متنفسها في الفجور الجامح
والتحدى الشائكل مواعظ الدين ومثل الفضيلة ، وتجد أحياناً أخرى
متنفسها في الورع المرعوب والتعبد العنيف الملهب . أما استطاعتها
المزج بين العاطفتين في آن معاً في بعض أوقاتها فسببه ارتدادها إلى
الأصل البدائي البشري .

وظاهرة الارتداد النفساني يستعير لها علماء النفس مصطلحا معروفا
في علوم الاحياء ، atavism . ومعناه في علوم الاحياء أن تظهر في
الكائن الحي خصائص جسمانية لم تظهر في آبائه وإنما كانت ظاهرة في
أجداده القدماء ، فيسمون هذا ارتدادا الى الأصل أو انتكاسا ، ثم
يستعيره علماء النفس ليعرفوا ما يحدث بالنفس البشرية من ارتداد
غريزي أو عاطفي الى أحوال نفسانية كانت موجودة في قديم البشرية
بين الجماعات الهمجية التي كانت بدء تطورا للإنسان من حالته الوحشية
الى مرتبته الإنسانية .

وقد رأينا من قبل مثالا لانتكاس أبي نواس حين أنعمنا النظر في
موقفه من الخمر فللنا شعوره نحوها بالرهبة والتقديس وقلنا أنه
يشبه البشر البدائيين حين يروعهم منظر الخمر وجيشانها ويرهبهم
تأثيرها العجيب في الجسم وفي العقل فيعتقدون أن بها روحا أو أنها
هي روح حية محيية فينسبون إليها نظير القوة الإلهية الغامضة التي
ينسبونها إلى قوى الطبيعة الجبارة المسيطرة التي تحيط بهم والتي يشعرون
بسطوتها ولكن لا يفهمون كنهها .

أما هنا فهو يرتد ارتدادا بدائيا آخر فيشبه السذج حين يخلطون
بين نشوة الجنس الطاغية ونشوة الدين العنيفة في تعبد مزدوج . ولكن
كيف تسنى لأبي نواس ، هذا المثقف المتحضر الذي عاش في بيئة
أخذت بقسط وافر من الحضارة والترقي ، أن ينتكس بهذه الكيفية ؟

تعليل ذلك ما أصيب به من عقدة نفسية بدائية عجز عن حلها ،
فلما عجز عن حلها توقفت نفسيته في نموها ولم تصل مرحلة النضوج
التي يتم فيها اعتدالها وتوازنها وتستطيع الفصل بين الذشوتين .

عجزت نفسية أبي نواس عن استيفاء نضوجها فارتدت إلى الأصل ✓
الغريزي القديم في تقديس الخمر وفي المزج بين الانفعال الديني
والانفعال الجنسي . وكان هذا الارتداد فيه أطنى من أن يقمعه فكره
المثقف أو يتطهر بطهور الإسلام مع صدق إيمانه بعقائده وتام
اقتناعه الفكري بصحته ، وكثيرا ما يكون الاندفاع الغريزي أقوى من
أن يضبطه العقل أو يصلحه الإيمان العقيدى . ونستطيع الآن أن نفهم
شيئاً ربما كان خافياً علينا من قبل ، وهو سر شغفه العظيم بالطقوس
المسيحية وانجذابه إلى تأمل حياة الرهبنة في الأديرة .

فهذه الطقوس برموزها التجسيدية الكثيرة : بصورها وأقانيمها
وتماثيلها ، بتعميدها ودهانها وقرابينها ، بمسوحها وصلبانها ونواقيسها ،
قدمت إلى نفسيته ارضاء ما كان ليجدده في شعائر الإسلام الخفيفة
المتطهرة ، وهو ارضاء النشوة المزدوجة التي يمتزج فيها طرب الروح بمتعة
التجسيد ، ونفس هذا الإرضاء المزدوج قدمه له التأمل في الحياة المترهنة
التي تقوم على استخدام الطاقة الشهوانية العنيفة وحرقتها في آتون
التعبد المضطرم .

وما كان يستطيع أن يظفر في عبادة الاسلام السمحة المعتدلة
الخالية من التهوس بذلك الإرضاء الشئائى الذي تآقت إليه نفسيته

المضطربة المختلطة . ولهذا لم يكن من العجيب أن يميل إلى طقوس
المسيحية ذلك الميل ، وأن يفتتن بها ذلك الافتتان ، بل كان العجيب
حقاً أن يبقى على اسلامه وأن يكون اسلامه بالصدق والاخلاص
والعمق الإيماني الذي رأيناه .

ومن هنا نفهم ذلك البيت الذي ختم به قافيته في الغزل براهب
مسيحي :

وآذن عاشقوك إلى النصارى من الاسلام طرا بالعقوق
وذلك البيت الآخر الذي ختم به ميميته في مناجاة غلام مسيحي :
فلولا دخول النار بعد بصيرة عبدت مكان الله عيسى بن مريما

ونظيرهما من الأبيات في شعره ، فليس هذا مجرد تعابث ومداعبة
كما كنا نظن ، بل هو تعبير عن شوق صادق وانجذاب حقيقي إلى
هذه الديانة . وهذا الافتتان بالمسيحية يزيد من فتنة أولئك الفتيان
له ، وهذه الفتنة تزيد مرة أخرى من انجذابه العاطفي إلى دينهم . فهو
كما ادعينا من قبل لم يحبهم بنماهم الجسدى وحده بل أحبهم لدينهم
أيضاً ، ثم عاد فازداد حباً بهذا الدين الذي يدين به أمثال هؤلاء الفتية
البارعى الجمال . فينشأ عن هذا نزاع عنيف تجده تام الوضوح في بيته
الثاني بين انجذابه العاطفي إلى المسيحية وبين ما يسميه « بصيرته » أى وثوقه
العقل من صحة الاسلام العقيدية .

ولكى تزداد تقديرآ لعنف هذا الصراع بين العقل والغريزة

فتذكر حبه الآخر العظيم ، حب الخمر التي قال فيها :

لاتسقى الدهر إما كنت لى سكنا الا التي نص بالتحريم جبريل
ان كان حرمها الفرقان بعد فقد أحلها قبل توراة وانجيل
والخمر فى الإسلام دنس محرم ورجس من عمل الشيطان ، وهى
فى المسيحية ليس محملا شربها وكفى ، بل تعد شرا با الهيا مقدساً يمثل
دم المسيح حين تحتل من الطقوس المسيحية أعلاها وأهمها وأعظمها
فى عرف المسيحيين تطهيرا للجسد وتحقيقا للخلاص الروحى واكسابا
للخلود ، نعى طقس العشاء الربانى أو القربان المقدس ، فشرها فيه
يدخل فى الجسم البشرى جزءا من جسم الإله أو روحه .

✓ فإن كان أبو نواس برغم هذا كله قد احتفظ بإسلامه ، واحتفظ
به بالاخلاص والعمق الإيمانى الذى رأيناه ، فهذا شاهد جديد على
مبلغ اقتناعه بعقائد الإسلام وتأكده الثابت من صحتها العقلية وان
يكن فى سلوكه العملى من أشد العصاة عصيانا لأوامر الاسلام الخلقية.

الفصل الرابع

الندفاع فاعمل

أنا اكتسبت لنفسى هذا العناء المعنى
جريت فى كل فن من الهوى فكأنى
مما فعلت بنفسى على كنت بضغن

دعوته إلى الاباحية . تطرفه فى هذه الدعوة . سببه : زعزعته
النفسية . عدم نضوج نفسيته . اندفاع هسترى . التشهير بالنفس .
الاشمئزاز من النفس . الانتقام من النفس . الشعور بالذنب . سخطه
على التوائه . ارتداد إلى عدم مسئولية الطفولة . سبب جديد لحبه
للخمر . تهربه من حقائق الحياة . فراره من الذكريات المؤلمة .
محاولته الهسترية فى تجاهل الحقائق المحزنة . تفاقم اضطرابه وزعزعته .
اشرافه على الجنون . دواؤه الأعظم : الخمر . الخمر دواء شر من الداء .
الرد على أنصار الخمر . ازدياد أمراضه واختلالاته . ميته الفظيعة .
الاعذار المخففة . مدى تأثيره بمؤثرات عصره . شيوع الخمر والغلمان .
انتشار النفاق فى عصره . إلى أى حد تأثر ببيئته وإلى أى حد أثر فيها .
تزعمه للسلوك الجديد وتحويله إياه من هزل وتظرف ومعاينة إلى
مذهب جاد عظيم الحرارة والاندفاع .

نعود فنقول : هذا العبد الصادق الإيمان بربه ، الشديد الانبهار أمام
عظمته وجلاله ، وهذا الشاعر ذو المقطوعات الملتهبة المتحسرة التي
يندم فيها أخلاص الندم على خطيئته ، ويتوق إلى التقوى والصلاح ،
ويحذر نفسه وغيره من مضية الأثم ، ويזהدهما في الدنيا ويبصرهما
بتفاهة اللذة ، هو نفس الرجل الذي تروى عنه أخبار لا مثيل لها
في الاخفاش والتهتك ، وهو نفس الشاعر الذي نظم قطعاً من أشد
ما يحتويه الشعر العربي حضاً على الإباحية وتزيينا للمجون ودعوة
إلى المجاهرة بالفسوق .

فهو الذي يقول

قل لمن يبغى صلاحى بعت رشدى بالصلاح
ظفرت كف أريب باع برا بجناح
أطيب اللذات ما كا ن جهارا بافتضاح

والذى يقول

اشرب فديت علانيه أم التستر زانيه
ودع التستر والريا فما هما من شانيه
والذى يقول

هذه الخمر جهارا فاشربنها لا سرا
لا كمن يكفى عن الأم ر إذا ما خاف عارا

والذى يقول

الا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر
 فعيشى الفتى فى سكرة بعد سكرة
 وما الغبن إلا أن ترانى صاحيا
 فبجح باسم من أهوى ودعنى من الكنى
 ولا خير فى فتك بغير مجانة
 ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر
 فان طال هذا عنده قصر الدهر
 وما الغنم إلا أن يتعتعنى السكر
 فلا خير فى اللذات من دونها ستر
 ولا فى مجون ليس يتبعه كفر

والذى يقول

غدوت على اللذات منهتك الستر
 وهان على الناس فيما أريده
 وأفضت بنات السر منى إلى الجهر
 بما جئت فاستغثت عن طلب العذر

والذى يقول

أيها العاذل دع لو
 خندريس عطر النك
 إنما طابت لذى فت
 جاهر الناس بما ي
 وبدا الناس مشهو
 مى فى شرب الرحيق
 هة كالمسك السحيق
 ك تردى بفسوق
 تيه فى ضنك وضيق
 رأ كذى الرأس الحليق

والذى يقول

أسقنى واسق دفافه
 أن غيرى من قلاها
 هاتها جهراً ودعنى
 يا أبا الحر سلافه
 لرجاء أو مخافه
 من أحاديث خرافه

والذى يقول

لا خير فى اللذات ما لم يكن صاحبها منكشف الراس

فهل تضطربنا هذه الآيات التى لم نروها من قبل إلى أن نعدل من حكمنا الذى أصدرناه فى الفصل الماضى ؟

✓ العكس من ذلك هو الصحيح ، فهذه الآيات المتطرفة فى التحدى والمجاهرة تشرح لنا سبب الندم الحار الذى رأيناه فى أشعاره الأخرى ، ما كان ندمه عنيفاً إلا لأن عصيانه كان عنيفاً . وهذه الآيات تزيدنا بصراً باضطراب نفسيته وتأرجحها ، فلننعم النظر فى هذا التأرجح العجيب بين الطرفين حتى نتمتع خصائصه المختلفة و نرجعها إلى سببها الباطن الاساسى ، ألا وهو تلك العقدة الدفينة التى ربطته بأمه والتى عجز عن حلها والتخلص منها طول حياته .

هذه العقدة هى أعظم العقد النفسية جميعاً وأقدمها فى التكوين البشرى (١) ، وهى الحاجز الأكبر الذى يحجز بين نفسياتنا وبين

(١) يعتقد علماء النفس والانثروبولوجيا أن منشأها كان فى الجماعات الوحشية القديمة التى كان يسيطر على كل جماعة منها ذكر واحد قوى يتزوج نساء عديدات فاذا شب أولاده منهم طردهم أو تغالبوا عليه حين يهرم وقتلوه وتقاسموا زوجاته أى أمهاتهم . ثم لما خطا الانسان خطوته التالية فى الرقى حرم الفسق بالأم وعده أشنع الجرائم ، فكان هذا التحريم بداية ترقية البشرى . ولكن الانسان ما يزال يحزن فى أعماق نفسه إلى ذلك الاتصال القديم ، وهو نزوع بدائى عليه أن يحلّه قبل أن يستطيع استكمال نضوجه النفسانى .

النضوج والاعتدال ، فان استطعنا التغلب عليها — وهو ما يستطيعه معظمنا لحس حظ الانسانية — تجاوزنا قصور الطفولة وعجزها وتمسكها بالأم وتشبثها بحمايتها إلى استقلال الرجولة ونضوجها ، إذ تتطهر أنفسنا من جريمة النزوع البدائي الفاسق فترتاح من الشعور بالذنب والخزي الذي يولده هذا النزوع ، وبذلك تعادل وتزن وتمضى فى نموها حتى تستكمل نضوجها — ما لم تقم دونه عراقيل أخرى .
وأما إن عجزنا عن التغلب عليها فإن نفسيتنا تبقى مضطربة مشتتة تكتوى طول حياتها بنار الشهوة المحرمة التي لم تشبع ولم تحل فتظل مزعزعة متداعية الاركان يعوزها الهدوء والاستقرار ويستحيل عليها التكامل والنضوج .

فالفرد البشرى إذا فشل فى امتحانه الاول والاعظم ظلت نفسيته مزلزة متأرجحة أخطر التأرجح تتعاورها النوبات المتبخالفة وتطير من عنف فى ناحية إلى عنف فى ناحية أخرى . وسبب هذا أنه يظل فى صميمه صبياً مهماً يتقدم به العمر ، صبياً عظيم الصخب شديد الشغب كثير الصياح ، صبياً لم تكتمل نفسيته ولم تنضج ، صبياً يتوق إلى حماية الأم ويذعر من مواجهة الحياة ويفر من تحمل المسئولية ، صبياً لا يحس برجولة كاملة مستقلة قديرة على مواجهة وقائع الحياة والنهوض بأعبائها فيتهرب منها ويتحسر على ذلك الصدر الحنان الذى كان يحميه ويلحفه ظله . وكلما امتدت به السن تزايدت اختلالاته العصبية وتفاقم شرها حتى تمزق شخصيته شر تمزيق وتتردى به أحياناً فى هوة

الجنون — وهو نهاية الاختلال العصبي حين يصل مداه ، أو تدفعه إلى محاولة الانتحار ، وهى على أى حال ترهق جسمه بالأمراض وتضاعف عليه العلل حتى ينتهى بالموت الذريع .

وهذا ما أصاب أبا نواس . فهذه الآيات الصارخة بالثورة والتحدى والعصيان إذا قرناها إلى الآيات المضطربة بالندم والجزع والتحسر اطلعتنا على مدى اضطراب نفسيته وفقدانها التوازن وزلزلتها طول حياته . فهو يتطرف في الفرح العميق ويتطرف في الحزن الكاوى ، يتطرف في الاستهتار الصارخ ويتطرف في الورع المرعوب ، وهذه الذبذبة العنيفة ناتجة عن اندفاع هسترى لنفسية اختل توازنها فهى تتأرجح تأرجحاً عنيفاً بين الكفتين .

اندفاع هسترى : هذا تفسير آياته . فهو يرغم نفسه ارغاماً على الاسراف ويسوقها سوقاً إلى التطرف ويجد في هذه المغالاة لذة هسترية حادة . وهى مغالاة تجره إلى أشياء ، ما كان يقصدها من البدء ولكنه اندفع اليها حين ركب نفسيته الجامحة . فلنعد النظر في الآيات لنستجلى هذه الحقيقة .

فهو يصيح برفيقه : ألا فاسقنى خمرأ ! وهو يعلم ان الخمر إثم محرم ، ولكن هذا العلم نفسه يثير فيه رغبة فى تحدى أوامر الدين فيطلب الخمر بهذه النبرة الصارخة .

ولكن هذا لا يكفيه ، فيصيح : وقل لى هى الخمر ! وهى جملة

تذكرني كلما قرأتها بصديق لي زرتة وفي يده كوب من الويسكي فاسرع
بصبه في حلقه والتفت إلى خجلان وقال : هذا دواء للحلق وصاني به
الطبيب ! ولكن أبا نواس لا يريد ان يكون كهؤلاء ، لا يكفيه أن
يشربها وأن مجرد شربها عصيان ، لا يريد ان يشربها خلصة أو مراوغة
ولا أن يسرع بصبها في فمه خجلان معذراً ، بل يريد أن يمسك بكأسها
برهة وأن يرفعها ويلوح بها متحدياً وأن يعلن اسمها دون اخفاء وأن
يؤكّد لنفسه ولرفيقه انه الآن سيشرّب هذا الشراب المحرم .

ولكن هذا أيضاً لا يكفيه ، فما يلبث ان يصيح من جديد :
ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهر ! لا يكتفي بأن يشربها في حجرته أمام
رفيقه ، بل يريد كلما أمكنه ذلك أن يشربها علناً أمام الناس ، في المقهى
أو في النادي أو في السوق ، ناظراً اليهم وهو يرفع زجاجتها إلى شفّيته
نظر المتحدّي الثائر المستهين بنقدّم .

وهذا التحدي السافر يعطيه لذة لا تقل عن لذة الخمر نفسها فيقول :
فلا خير في اللذات من دونها ستر . ولكن هذا أيضاً لا يكفيه ، فيندفع
اندفاعاً آخر ويقول : ولا خير في فتك بخير مجانة ! يريد أن يقتن
عصيانه بأشد ما يستطيع من الابتذال والتهتك واطراح الحياء .

ولكن اندفاعه العصبي قد بلغ درجة من الجوح والشطط لا يكفيه
فيها التهتك العاصي مهما تكن مبادله ومخازيه ، فيندفع اندفاعه الأعظم
والأخير ويصيح صيحة ما كان يقصدها قط : ولا في مجون ليس يتبعه

كفر ! ! ونحن نعلم من دراستنا السابقة أنه ما قصد الكفر وما صار
إليه أبداً وإنما هو عقله قد طاش طيشاً تاماً من أثر هذه الاندفاعات
العصبية المتتالية .

شرب للخمر برغم تحريم الدين ، وصياح بأنها الشراب المحرم
لا غيره من حلال الأشربة ، وشرب جاهر كلها أمكن ، وعصيان
مقترن بالتهتك ، وتهتك يقود إلى الكفر . اندفاعات هسترية متلاحقة
ينقاد فيها من قفزة نائرة إلى قفزة أشد جموحاً .

وترى نفس الاندفاع العصبي في قوله

اسقني واسق دفافه يا أبا الحر سلافه

ان غيرى من قلاها لرجاء أو مخافه

ثم صيحه الطائشة

هاتها جهراً — ودعنى من أحاديث خرافه !

وهو ما كان يعتقد حقاً أن الدين حديث خرافة ، فلقد رأينا
عمق إيمانه وتمام تصديقه ، ولكنه الشطط العصبي يقوده إلى
ما لا يقصد .

لا غرو أن يكون ندم مثل هذا الرجل حين يندم قوياً عنيف
الحسرة ، فندم المصابين بالهستريا يكون دائماً أحد من ندم الفرد
المعتدل المزاج حين يرتكب إثماً . ويروى القدماء أنه حين نظم بيتيه

ياناظراً في الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر

ماصح عندي من جميع الذي يذكر إلا الموت والقبر
نظمهما في مجلس شراب له ، فاستنكر نداهما وجفوه . فقال لهم :
ويلكم والله أني لأعلم أن المجنون يفرط على وأرجو أن أتوب فيرحمني
الله . ثم أنشأ يقول

أية نار قدح القادح وأي جد بلغ المازح
واستمر حتى أتم هذه القصيدة البليغة الصادقة . ويروون له أخباراً
أخرى من هذا القبيل .

قلنا أنه يجد في هذا الاندفاع لذة هسترية حادة ، فما هذه اللذة ؟
هي ما تكشف عنه الأبيات إذا دققنا النظر فيها ، وهو ما يسميه
النفسانيون العرض أو التشهير بالنفس (١) ، ويعطون له شواهد متعددة
يصل المصاب إلى أقصاها حين يقوم في مكان عام فيخلع عن جسده
- ذكرأ كان أو أنثى - جميع ملابسه ويبدو للناس كما ولدته أمه .
تأمل في أبياته

أطيب اللذات ما كان « جهاراً » ، « بافتضاح » ،

هذه الخمر « جهاراً » فاشربنها لا « سراً »

لا كمن يكفى عن الأمر إذا ما خاف « عارا »

ودع « التستر » و « الريا » ، فما هما من شانيه

غدوت على اللذات « منهتك التستر » وأفضت بنات « السر » منى إلى « الجهر »

وبدا فى الناس « مشهو » را ، كذى « الرأس الحليق »

لا خير فى اللذات ما لم يكن صاحبها « منكشف الرأس »

علام تدل تعبيراته « جهار » ، « افتضاح » ، « عار » ، « منهتك التستر » ، « مشهور » ، « أفضت بنات سرى إلى الجهر » . وعلام يدل تشبيهه « ذو الرأس الحليق » ، « منكشف الرأس » . هى تدل على إصابته بهذا الداء الوبيل الذى يدفعه فى حمية انفعاله العصبى إلى أن يجد لذة عنيفة فى فضح نفسه والتشهير بها والحاق العار بها وهتك التستر عن علته وعرضها على أنظار الناس أجمعين .

وعلام تدل هذه الرغبة فى فضح النفس ؟ أتدل على رضى بعلته وافتخار بها كما يدعى ؟ يؤكّد لنا علماء النفس أن هذه الرغبة تدل على العكس تماما ، على امتعاض المريض من مرضه وسخطه عليه وحنقه

من ابتلائه به ، وعلى شعور بالخزى والاشمئزاز من نفسه (١) ،
ولكنه وقد عجز عن مداواته يبذل جهداً عنيفاً في مخادعة نفسه
وإيهامها وإيهام غيره أنه راض بعلته مرتاح إليها بل فخور بها .

فالذين يصابون بعلّة أو عاهة يخجلون منها يسلكون سلوكين مختلفين ،
فبعضهم يسترها ويبذل جهده في إخفاءها ويقضى حياته يخترع الحيل
التي تبدو طبيعية غير متكلفة لتغطيتها . وبعضهم يبرم بهذا كله فيظهرها
متحدياً بل يعتمد فضحها بدون داع ويصيح بأنه فخور بها . ولكن
سلوكه هذا يدل في حقيقته على عكس ما يدعى ، يدل على مبلغ تأفقه
من علته وخزيه منها وسخطه على حظه العاثر ، فيجد لذة خبيثة في
الكشف عنها وإيقاع الألم والفضيحة والعار بنفسه عقاباً .

هذا التشهير بالنفس من أبي نواس هو في حقيقته إعلان عن سخطه
على عقدته الدفينة وبرمه بالتوائه الذي لم يستطع له إصلاحاً ، فهو
يحول سخطه إلى نفسه ويتلذذ بالانتقام منها بأقضى انتقام يستطيعه .
وهذه القسوة على النفس (٢) نجدها وراء مبالغته في الفسوق في كل ما
يروى عنه من الأخبار الشنيعة التي يصل إسرائفها في المجون درجة
صارت مضرب الأمثال في التاريخ والقصص فصار اسمه العلم الأشهر
على السلوك الفاضح المخزى في الأدب العربي والصقت به كل قصة تروى

Self—disgust (١)

Masochism (٢)

عن التهمتک المفرط وإن لم تكن حدثت له .

وهكذا نزداد فهماً بالترايط بين فترات مجونه وفترات توبته ،
فان نواس ما صار إلى الرضى عن شذوذه ولا قبله ولا اطمأن اليه .
واسرافه في التهمتک ليس ناشئاً إلا عن نفس شعوره بالذنب الذى
يقوده في بعض فتراته إلى الندم والاستغفار . وهو في فترات عصيانه
كلما أطال التفاخر بأثمه والتحدى بعرضه وإشهاره زادنا دلالة على
بغضه الحقيقى له وخزيه منه . فيجد تنفيس هذا البغض والخزى في أن
يفضح نفسه أتم فضيحة ويجد لهذا الانتقام لذة حادة خبيثة .

ويبدو أنه هو قد أدرك ذلك في بعض فترات صحوه ، استمع
إلى أبياته الناشئة الملتاعة

أنا اکتسبت لنفسى هذا العناء المعنى
جريت فى كل فن من الهوى فكأنى
مما فعلت بنفسى على كنت بضغن

وهى من أشد شعره إثارة لشجن قارئه . وهى أيضاً من أهمه
دلالة نفسانية ، فهى تؤيد ما استنبطناه عن السبب الحقيقى لجموحه
واندفاعه . وإن كان هو يستعمل أداة التشبيه فإننا نستطيع بكل
وثوق أن نحذفها فنقرر أن ما دفعه إلى الانسياق مع هواه فى كل فنون
الجموح هو أنه كان فعلاً بضغن على نفسه ولذلك يصنع بها ذلك الصنيع
ويرهقها ذلك الإرهاق ويحملها على كل ما عاتته من العناء .

شعوره العميق بالذنب (١) هو الذى يركبه متن الشطط والتماذى ،
 وسلوكه هذا فى صميمه عناد ورعونة ، يتصنع عدم الاكترات ويتعمد
 المبالغة فى طيشه ونزقه محاولا أن يقنع نفسه وغيره أنه لا يبالى
 بمقاييس الأخلاق ولا يأبه لتنظيم المجتمع . وهو نفس السلوك الذى
 يصدر عن كل من يعذبهم الشعور بالذنب حين يعجزون عن اصلاح
 أنفسهم . وكثيرا ما يدفعهم هذا الشعور إلى محاولة أخرى نراها أيضا
 فى ابى نواس ، يحاولون أن يجعلوا من الاضطرار فضيلة ، فيعلنون
 أنهم إنما انساقوا فى الاباحية عن شجاعة أدبية خلا منها معاصروهم ،
 وان رائدهم الصراحة ومعاداة النفاق وبغض التخفى والرياء ، فيذمون
 النفاق الاجتماعى السائد أمر الذم ، ويفخرون بجراتهم على المصارحة
 بما يعملون :

وهان على الناس فيما أريده بما جئت فاستغفيت عن طلب العذر

إن غيرى من قلاها لرجاء أو مخافة

هذه الخمر جهارا فاشربنها لا سرارا
 لا كمن يكفى عن الأم - إذا ما خاف عارا

اشرب فديت علانيه أم التستر زانيه
ودع التستر والريا ء فما هما من شانیه

لا نريد بهذا أن ننكر أنه قد أبدى فعلا شجاعة عظيمة بل شجاعة
متهورة ، ولا نحن نتفي أنه قد كره النفاق الاجتماعي السائد في عصره
كرها صادقا ، ولكن لا تزال الحقيقة في شجاعته الأدبية ما قلنا ،
أن سببها الأصل اندفاع هستري نشأ عن شعور عميق بالذنب واشمئزاز
قوى من خطيئته وسخط نائر على نفسه حين عجزت عن الإصلاح
ومحاولة لتغطية هذا كله بتصنع عدم المبالاة والاستخفاف بقيود
المجتمع والسخرية منها والتحدى الجريء لتقاليد المتبعة .

ونحن الرجال العاديين الذين لم نصب باعتلال عصبي نليجا أحيانا
إلى هذه الحيلة حين نريد أن نرتكب اثما نخجل منه في حقيقة نفوسنا
وندرك خطأه وفساده . ولكننا انما نفعل هذا في أوقات معدودة
متفاوتة حين يخضع ضعفنا البشري لاغراء الخطيئة ، أما في سائر
حياتنا فنحن ندرك تبعثنا الخلقية ونهض بها نهوضا يقوى ويضعف ،
ولكن أبانواس يحاول أن يتخلص من التبعة الخلقية تخلصا تاما
مستديما ، فيطلعنا بهذا على ظاهرة أخرى فيه يسميها الباحثون النفسانيون
الارتداد إلى عدم مسئولية الطفولة ^(١) . وهي الاخرى قد تولدت من

السبب الأساسي الذي تولدت منه جميع علله النفسية ، من فشله في فهم رابطة بالأم .

فالذين يخفقون في ذلك الامتحان النفسى العسير يظلون كما قلنا صبياناً في صميم أنفسهم مهما تتقدم بهم السن . ومن علامات هذه الصبائية محاولتهم في التخلص من المسؤولية الخلقية . فهم يبقون طول حياتهم يحنون إلى حماية الأم ورعايتها ، فيعجزون عن النمو والنضوج ولا يستكملون رجولتهم ولا يستطيعون مواجهة متاعب الحياة وتحمل همومها ، فيفرون من المسؤولية ويجدون في الارتداد إلى عجز الطفولة وعدم مسؤوليتها عذرهم وكنفهم الذى يختبئون فيه من تبعات الحياة القاسية (١) .

وهذا عين ما حدث لأبى نواس . فتحدية الطويل لمقاييس الأخلاق وخروجه السافر على قيود المجتمع تملص صبيانى من المسؤولية الخلقية سببه عجزه عن مواجهة الحياة وتقبل أحمالها الثقيلة على كاهله والنهوض بتبعاتها فى قوة ورجوة واستقلال . يريد أن يعود صبياً لا يسأل عما يفعل . وهنا قدمت له الخمر معونة أخرى ، فالخمر كما هو

(١) نجد أسمى حالة لمرض الارتداد إلى الطفولة حين يبلغ درجة باثولوجية فيعجز المصاب عن إطعام نفسه وعن المضغ ويحتاج إلى شرب السوائل من « البرازة » ويعجز عن ضبط أمعائه فيلوث نفسه كالطفل ولا يستطيع الكلام إلا فأفأة الأطفال ويعجز عن الاستواء على قدميه والمشي فيزحف على ركبتيه .

معروف تضعف الحاسة الخلقية وسورتها تكسب جرأة على تحدى
المجتمع والخروج على آداب السلوك المفروضة وهي جرأة ربما لا يجدها
الفرد في نفسه في حالة صحوه . وهذا معنى قوله بعد وصفه إياها بأنها
« شقيقة روحه » :

لا تلمنى على التى فتننى وارتنى القبيح غير قبيح
بل إن إلحاحه في الشرب وإغراقه نفسه في غيبوبة السكر جهد
ما استطاع لا يفيق من كأس إلا صاح مطالباً بأخرى مظهر آخر
لهذه المحاولة ، محاولة التهرب من أعباء الواقع ومسؤوليات الرجولة
الناضجة. أعد النظر في أبياته العنيفة الثورة والتحدى :

الافاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر
وهى التى اندفع فيها من العصيان إلى المجاهرة إلى المجون إلى ادعاء
الكفر ، تجد بيتيها الثانى والثالث هما هذان :

فعيش الفتى فى سكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قصر الدهر
وما الغبن إلا أن ترانى صاحبيا وما الغنم إلا أن يمتعنى السكر

ما ارتباط هذين البيتين بالأبيات التى تسبقهما وتليهما ؟ ما سر
هذه الفاء التى يعطف بها بيته الثانى ؟ هو يريد أن يظل فى سكرة تعقبها
سكرة وألا يفيق من غيبوبته أبدا ، وإنما يريد ذلك لأنه حين يصحو
من سكره تفجأه حقائق الحياة القاسية وتجبهه تبعاتها الثقيلة ، وهو
يريد الهرب منها ، فالغبن أن تراه صاحبياً ، لأن الصحو يفتح عينيه إلى

الحقائق البغيضة ، والغنى ان يشغل عليه السكر ويسلبه وعيه حتى لا يستطيع أن يفصح بكلمة ، وإن استمر به هذا السكر واتصل « قصر الدهر » ، أى استطاع أن يمر مرة سريعاً فى حياته المكتوبة عليه دون أن يرغم على مواجهة حقائقها المرة وتحمل مسؤولياتها .

✓ ومن أهم الظواهر التى يراها المطالع لحياته وشعره تهربه الدائم من كل ما يحزن ويسىء ومحاولته الفرار من حقائق الحياة حين تكون مؤلمة كريهة وإصراره على أن يتعاضى عنها أو ينساها بأسرع ما يستطيع . فهو كان شديد التعلق بالأصدقاء ولكن حين تفرق بينه وبينهم أحداث العيش لا يطيق ألم الفراق ولا يحتمل مرارة الذكرى فيجاهد جهاداً قوياً لكي ينساهم ويصد مخيلته صداً عنيفاً عن الماضى فى ذكرياتها . يبدأ بانيته الجميلة بوصف مراتع فتوته فى البصرة مع رفاقه المحبين وهو وصف شديد الاضطراب العاطفى يدلنا على مبلغ حبه لهم وتحسره على انقضاء عهدهم :

عفا المصلى واقوت الكشب منى فالمربدان فاللب
فالمسجد الجامع المروءة فالـجد عفا فالصحن فالرحب
بجالس قد عمرتها يفعا حتى بدا فى عذارى الشهب
فى فتية كالسيوف هزهم شرح شباب وزانهم أدب
ثم أراب الزمان فانقسموا أيدى سبا فى البلاد فانشعوا
لن يخلف الدهر مثلهم أبداً على هيات ! ، شأنهم عجب

تأمل في هذه العاطفة الزاخرة المهتزة يحكيها بحر المنسرح بتقطيعاته
المضطربة أجود حكاية (١)، واستمع إلى زفرته الوهلى فى البيت الأخير .
ولكنه أضعف من أن يطيق هذه الذكرى فما يلبث أن يقول :

لما تيقنت أن روحهم ليس لها ما حيمت منقلب
أبليت صبرا لم يبيله أحد واقتسمتنى مآرب شعب
كذاك انى إذا رزئت أخا فليس بينى وبينه نسب

وليس هذا منه نتيجة عدم الوفاء أو ازدراء بقيمة الأصدقاء
ولكنه عجزه عن أن يحتمل هموم الحياة ويفكر فيها . وهكذا ظل
كلها فارقه أحبة طار إلى الكأس يغرق فيها همومه ويخدر بها
الذكرى الالئمة :

لا تبك بعد تفرق الخطاء واكسر بمائك حدة الصهباء

لا تحزن لفرقة الإخوان واقر الهموم بمذهب الاحزان
ويقول فى بائية أخرى من بحر المنسرح أيضاً :
اصدع نجى الهموم بالطرب وانعم على الدهر بابتة العنب
واستقبل العيش فى غضارته لا تقف منها آثار معتقب

(١) أنظر تحليلنا لاضطراب هذا البحر وملاءمته للعاطفة المهتزة المتجلجلة فى كتابنا
(شخصية بشار) ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

فهو لا يطيق أن يفكر في أعماله السابقة وأن يزنها بميزان الحكمة
وأن يتدبر عواقبها التي جرتها عليه ليستكشف مواضع خطاه ويتخذ
منها عبرة وعظة لسلوكه المستقبل . هذا الواجب الذي يقوم به كل
رجل ناضج حصيف لا يقدر عليه فيفر منه إلى الكأس يطرد بها
همومه ويفل بتخديرها حدة ندمه . وقد كانت هذه الرغبة من أسباب
إصراره على أن يكون مجلس الشراب مجلس هناءة مطلقة واستبشار
تام لا يكدره مكدر ، فهو لا يريد أن يسمح لحقائق الحياة المزعجة
أن تتسلل إلى هذا المجلس فتعكر صفوه وتفسد عليه النسيان الذي
يلتمسه ويسعى إليه جاهدا :

في الكأس مشغلة وفي لذاتها فاجعل حديثك كله في الكأس
صفو التعاشر في مجانبه الأذى وعلى اللبيب تخير الجلاس

لمثل من الفتيان حلت أخى الخمر وطابت له اللذات واسترخى السكر
إذا كان شربى لا يكدر مجلسى ولا يعترى فيه خصام ولا هجر
وكان هذا هو السبب الذي كرهه في منادمة العرب ، لا لأنه
يتعصب عليهم تعصباً شعوبياً كما اتهمه الكثيرون ، فأبو نواس ما أحب
أن يعادى فرداً أو جنساً وما كان يطيق نكد المعاداة ، ولكنه شكس
طبائعهم وضرأوتهم وكثرة مخاصماتهم وتنازعهم بالألقاب وتفاخرهم
بالانساب كلما ضمهم مجلس ، بقية من عنجيتهم البدوية كانت تعكر

عليه مجالسه الهنيئة . وفي قصيدته الذالية المشجية التي يتشوق فيها إلى بغداد ومنازها ولذاتها بعد أن طال ابتعاده عنها في الحج :

قالوا تنسك بعد الحج قلت لهم أرجو الاله وأخشى طربا إذا
أخشى قضيب كرم ان ينازعني فضل الخطام وان اغذت أغذا
ما أبعد النسك عن قلب تقسمه قطربل فقري بني فكلوا إذا
فإن سلمت — وما قلبي على ثقة من السلامة — لم أسلم ببغذا إذا
ماشتت من بلد دان منازحه

لا يلبث أن يعكر عليه هذا الشوق تذكره لاهلها من العرب
القبليين السريعين إلى الشر الدائم اللجب والمخاصمة والتشدد بالمحامد
القبيلية :

ماشتت من بلد دان منازحه لكن فيه قبيلات واخذا
قوم تواصوا بترك البر بينهم تقول ذاشرهم بل ذاك بل هذا
ليسوا كقوم إذا حاذيت مجلسهم انفذت بالترك (?) والازكان انفاذا
هناك لا تتخطى الاذن لائمة ولا ترى قائلا من ذا ولا ماذا

والقوم الذين يعنيه في البيتين الآخرين هم الفرس ، وهذا سبب
حبه لمناذمتهم ، لا لتفضيل شعوب بل لانهم في تهذيبهم الحضري
يخلون من هذه المكدرات . وهذا يزدد وضوحا في قطعته :

ولفارس الاحرار انفس انفس وفخارهم في عشرة معدوم
وإذا أعاشر عصبة عربية بدت إلى ذكر الفخار تميم

وعدت إلى قيس وعدت قوسها سبيت تميم وجمعهم مهزوم !
 وبنوا الاعاجم لا أحاذر منهم شراً فنطق شرهم محسوم
 لا يبدخون على النديم إذا انتشوا ولهم إذا العرب اعتدت تسليم
 هو كما ترى في شطره الاخير يجب المسالمة ولا يجب المعاداة . أما
 المهذبون المتحضرون من العرب فلم يكن لديه أدنى مانع من منادمتهم
 وله قطع كثيرة في امتداح مجالسهم وحلاوة شمائلمهم ، وقد قال فيهم
 على لسان الخمر هذا البيت الاريحي المطرب :
 ولا الأراذل إلا من يوقرنى من السقاة ولكن اسقني العربا !
 ومن مظاهر فراره من كل حقيقة مؤلمة مقطوعاته العديدة في ذم
 الحرب وتفضيل المسالمة ، فحين تنتاب عصره الفتن وتمزقه القلاقل
 وتعصف به أرياح المشاحنات والحروب يغمض عينيه عنها ويهرب
 منها إلى مجالس الندامى يسرف إسرافاً عصبياً في مرحها وطربها محاولاً
 بذلك أن يغلق أذنيه عن أحداث القتل والجرح وأن يغلب صياح
 السكر على صياح الطراد والنزال :

فاذكر صياح العقار واسم به لا بصياح الحروب والعطب
 أحسن من موقف بمعترك وركض خيل إلى هلا وهب
 صيحة ساق بجابس قدحا وصبر مستكره لمنتحب
 وردف ظي إذا امتطيت به أعطاك بين التقريب والخب

أما يسرك ان الأرض زهراء والخمر ممكنة شمطاء عذراء

ما في قعودك عذر عن معتقة كالليل والدها والأم خضراء
بادر ! فإن جنان الكرخ مونة لم تلتقفها يد للحرب عسراء
استمع الى صرخته الجزعة النافذة الصبر : بادر !
ويلخص فلسفته هذه في قوله :

دع من العيش كل رنق وخذ منه ماصفا

ولكنها فلسفة قاصرة ضارة ، فاننا للأسف الشديد لانستطيع أن
بدع كل كدر من العيش وألا نأخذ منه إلا صفوه ، بل نحن نضطر
كثيرا إلى شرب الرنق ويجب أن نعود أنفسنا على تقبله واحتماله وإلا
عجزت نفسياتنا عن النضوج ولم تتم فينا القدرة على التحمل والنهوض
بأعباء الحياة الواقعة . وهذه فائدة المشتقات والآلام التي تواجهنا في
الحياة ، أنها تدرب نفوسنا على الاحتمال وتعودها الجلد فتكسبها متانة
وقوة وتنمي فيها الاستقلال والرجولة . وجريه الهستري وراء
المفرحات وفراره المذعور من كل ألم ومشقة وإغماضه عينه عن كل
حقيقة مزعجة ورفضه أن يفكر في تجارب ماضيه دليل على صبيانته
وعدم اكتمال رجولته وعلى رغبته الدائمة في الفرار من المسؤولية .

وهي محاولة لم تنفعه بشيء بل زادت خطبه تفاقما . فانه مهما طال
به الهرب كان ينتهي إلى تلك الأزمات الحالكات التي ترديه في هوة
اليأس وتريه الأشباح المرعبة وتذكره بأمر حقائق الحياة : حتم الموت ،
فيطير منها مرة أخرى إلى الخمر يلتمس فيها النسيان والتخدير والنشوة
المصطنعة . ولكن علاج الخمر وقى ، فيتفاقم اختلاله وتزداد نفسيته

اضطرابا وزعزعة . وهكذا دار طول حياته في هذه الحلقة الشريرة .
 دار في هذه الحلقة الشريرة فازدادت نفسيته ذبذبة بين الحالات
 المتطرفة المتعارضة وازداد في كل منها حدة وإسرافا وتماديا . وأفقده
 هذا التآرجح العنيف توازنه وكاد يسقط به في ختام العمل العصبية
 جميعا وهو الجنون . فالحق أنه في أواخر أيامه كان يعيش على شفا
 حفرة من الجنون ، نعى هذا الاختلال العقلي الكامل الذى يفصم بين
 صاحبه وبين وقائع الحياة فصما تماما . وأغلب ظننا أنه لم ينبجه منه إلا
 موته الذى عجل إليه . ونوع الجنون الذى تأرجح على حافته ولم ينبجه
 منه إلا سبق المنية هو فيما نعتقد النوع المسمى manic — depressive
 وهو الذى تتناوب صاحبه فترات متراوحت من الطرب الشديد
 والحزن العميق دون سبب باد لإحدى النوبتين . يكون فى الأولى
 عظيم المرح ، زائد الصخب والضجيج ، تام التفاؤل والاستبشار ،
 يقهقه بالضحك المدوى دون ماسبب ، ويتردى فى الثانية فى هوة الكابة
 والحزن وأعماق التشاؤم واليأس دون ماسبب . والذى أسرع بدفعه
 إلى هذا الجنون وكاد يقذفه فى حفرة كان نفس الدواء الذى تداوى
 به : الخمر .

كل ما استطاعناه من خبايا نفسيته ومكنون صراعه — كل
 ما كتبناه عنه فى كتابنا هذا منذ صفحته الأولى ، يبين لنا أهمية الخمر
 له ويفسر سر اندفاعه الخيف إليها . وهو اندفاع زاد على درجة الألمان

المعهود وبلغ حد القهر المصبي (١) الذى يبلغه بعض المدمنين .

فالخمر لم تقدم له ما يلتمسه السكارى العاديون من الطرب الوقتى أو من التخدير والنسيان ، لم تقدم له هذا فحسب ، بل فيها وجد التهذؤة الوحيدة التى استطاعها لعقدته الأساسية ولسائر علله التى تولدت جميعها عن تلك العقدة الواحدة .

فنازه الكبرى التى ظلت تلفح بضر أمها أعماق نفسيته طول حياته هى غيرته الجنسية على أمه ونزوعه الفاسق إليها نزوعا لم يستطع التغلب عليه والتخلص منه . وهذا النزوع أعجزه عن تحقيق اللذة المعهودة مع النساء وانحرف به إلى الغلمان . ولكنه لم يرضه هذا الانحراف كل إرضاء ولم يصر قط إلى القنوع به ، بل ظل فى صميمه ساخطا على التوائه متبرما منه . فوجد فى الخمر عوضا عن النساء ، ووجد فيها عوضا عن الأم ، ثم وجد فى المزج بين هذين التعويضين تحقيق ذلك النزوع الفاسق الذى لم يستطع حله والغاءه .

وهذه الرابطة التى أبقته مرتبطا بالأم أوقفت نفسيته عن النمو وأعجزتها عن بلوغ النضوج ، وكان من مظاهر ذلك التوقف ارتداداه إلى الأصل البشرى البدائى فى الخلط بين شهوة الجسد ونشوة التعبد وفى تقديس الخمر ، وقد قدمت له الخمر اشباع هذا النزوع فانتشى بها

انتشاء حسيا وأحس نحوها بالعبادة والتقديس وعشقها عشقا جنسيا
ووجد في الخلط بين هذه الانفعالات المتباينة تحقيق ما نزعته إليه
نفسيته غير الناضجة من خلط بين مختلف العواطف القوية .

وحين وقف عن التطور النفسى ارتدادا آخر ، إلى عدم
مسئولية الطفولة تخلصا من التبعية الخلقية وتهربا من أثقال الحياة ،
وهنا أيضا قدمت له الخمر ملاذا يهرب إليه حين تخمره سطوتها
فتضعف حاسته الخلقية .

واكتوائه الباطن بعقدته وإدراكه الواعى لالتوائه وفساد سيرته
اكسباه شعورا عميقا بالذنب عذبه أشد العذاب بما ولده فيه من
إحساس بالخزى واشتمزاز من النفس ، فكانت حيلته أن يتصنع عدم
المبالاة ويبالغ في اندفاعه وجموحه مدعيا الفخر بشذوذه والزهو
بآثامه ، وقد وجد في حميا الخمر وما تكسبه من الجرأة والشرّة أكبر
معين على هذا الطيش .

تعويض جنسى عن النساء ، وتعويض عاطفى عن الأم ، وتحقيق
للنزوع الفاسق ، وإشباع للارتداد الطفولى ، ومشجع على الشطط
والتمادى — لا جرم أن يجد في الخمر دواءه الأعظم لعلله النفسية .

ولكن الخمر ليست علاجا ، بل أن دواءها شر من الداء . هى
تجلب إلى الجسم والعقل معا أفدح العلل ، تنشيطها المؤقت ينهك الجسم
ويضعفه ويجر إليه شتى الأمراض العضوية ، وتخديرها المؤقت للعقل

ينتهى ويخلفه في شر ما كان عليه ، ثم يلح عليه إدمانها فيضطره إلى أن يزيد القدر الذي يشربه منها ليحصل على نفس النشوة ، وهذا وجسمه يزداد انحلالا وعقله يتفاقم خبالا ، فيكتسب إلى اختلالاته العصبية الأولى اختلالات جديدة سببها إدمان الخمر ، وقد ينتهى أمره إلى الجنون ، والأطباء والنفسانيون يقررون أن عشر المجانين في مستشفيات المجاذيب جرهم إلى جنونهم إدمان الخمر .

تلك هي الخمر التي يطرب أنصارها في شرفها وقداستها ، والتي سمعنا الأستاذ جود وغيره من محبيها يمدحون تذوقها ويجعلونه ذوقا مهذبا رفيعا ، بل يروونه علامة التحضر والكمال (١)

وشعر أبي نواس يطلعنا على مبلغ ارهاق الخمر لجسمه من وقت مبكر في شبابه ، ثم تضعف أضرارها به حتى أصابته بمرض عصبي

(١) في خاتمة كتاب « عفاريت لودان » يكشف الدوس هكسلي القناع عن تشريف الخمر وتقديسها . ويثبت ان نشوتها ليست نشوة الهية بل هي مس من الشيطان . وخلاصة نظريته ان بالانسان نزوعا دائما إلى الخلاص من سجن نفسه الضيقة والخروج عن حدودها ، والسبيل الوحيدة الصحيحة إلى هذا الخروج هو الانتشاء الروحي الصافي ، ولكنها سبيل صعبة جدا ولهذا يكثر أن يخادع الانسان نفسه ويلتمس سبلا كاذبة للانفعال ، وأهمها نشوة الخمر ونشوة الشبق الجنسي ، فيوهم نفسه أنهما يخلصانه ، وهما يخرجانه عن نفسه حقا . ولكنه ليس خروجا بالسمو إلى أعلى بل هو خروج بالانحدار إلى أسفل . ونحن لم نجد في كل ماقرأنا تفسيراً خيراً من هذا لنعت القرآن الخمر بأنها رجس من عمل الشيطان .

جديد هو الرعشة (١) ، ثم استمرت تفتك به حتى انتهت به إلى حالة
لا شك أنها الشلل الجزئي :

ارعشتني الكأس من إدمانها ولقد ارعشت من غير كبر

* * *

هات باليسرى فقد عجزت راحتي اليمنى عن القدر
ارعشتها بعد شدتها سطوة الابريق للصبح

ثم تتفاقم أمراضه في أواخر أيامه فينحل جسمه انحلالا سريعا
مخيفا ، وقد سجل هو حالته في مقطوعات قوية التصوير لا تدع لأحد
مسبيلا إلى اتهامنا بالمبالغة ، وهي مقطوعات عنيفة التفجع شديدة
التأثير في نفس قارئها مهما يكن رأيه في أثره وخطيئته

يموت مني كل يوم شيء والجسم مني ثابت وحي
والمرء يبلى نشره والطي وكم عسى من أن يدوم الحي
وآخر الداء السعيا السكي

تأمل في هذه الصرخة الأليمة التي يمثلها روى الياء المشددة تطعن
القلب كالمديّة الحادة .

* * *

أراني مع الأحياء حيا واكثرى على الدهر ميت قد تخرمه الدهر

فما لم يمت منى بما مات ناهض فبعض لبعض دون قبر البلى قبر
 فيارب قد أحسنت عودا وبدأة إلى فلم ينهض باحسانك الشكر
 فمن كان ذا عذر اليك وحجة فعذرى إقرارى بأن ليس لى عذر

وكتب إلى صديق له وهو يعانى سكرات الموت الأليم

شعر ميت أذاك فى لفظ حى صار بين الحياة والموت وقفا
 انحلت جسمه الحوادث حتى كاد عن أعين الحوادث يخفى
 لو تأملتني لتثبت جسمى لم تب من كتاب وجهى حرفا
 نفس خافت وجسم نحيل أرمضته الأسقام حتى تعفى

وله أخيرا هذه المقطوعة الشديدة التفطير للقلوب

دب فى الفناء سفلا وعلوا وأرانى أموت عضوا فعضوا
 ليس من ساعة مضت بى إلا نقصتنى بمرها بى جزوا
 ذهبت شرقي بجدة نفسى وتذكرت طاعة الله نضوا
 لهف نفسى على ليال وأيا م تملتين لعبا ولهوا
 قد اسأنا كل الإساءة يارب فصفحنا عنا الهى وعفوا

والقارىء الذى يستطيع ان يتغلب على اضطرابه العاطفى الذى
 تشيره هذه الأبيات الممزقة كي يتأملها بهدوء يجد ان أبانواس فى أيامه
 الأخيرة دبّت فيه علته ساعة بعد ساعة زاحفة على أعضاء جسمه
 عضواً بعد عضو كالنار الملتهمّة تأكل ضحيتها جزءا فجزءا ، وهذا
 وصف ينطبق على الشلل العصبى يتطرق فى الأطراف ثم يسرى فى

الأعضاء الحيوية حتى يبلغ إما القلب وإما المخ فتكون الوفاة . والذي
يزيد في فظاعة حالته انه في صحو تام لم يفقد وعيه ، فهو يرقب بعينه
موت أعضائه على التوالي ويحس بزحف العلة القاتلة في جسمه شبرا
بعد شبر . وهذا معنى قوله إنه مع موت أجزائه جزءا جزءا فهو لا
يزال حياً ، وتكراره هذا في كل قصيدة . والسؤال الطبيعي الذي يبدر
إلى ذهننا للتو هو : أين كانت الخمر المخدرة ولم لم يستعن بغيوبتها على
تحمل آلامه الرهيبة ؟

هنا تتبدى لنا شناعة ميته على أتم هولها ، فقد حرم عليه الخليفة
الأمين شرب الخمر في شهوره الأخيرة . ومعنى هذا انه حرم التخدير
الذي كان يفقده بعض إحساسه ويسلبه بعض وعيه ، فاضطر الى
الصحو ، ولكنه صحو لم يشفه من علة ، فلات حين مناص ، وكل ما
فعله انه اضطره الى مواجهة حاله الأليمة وتبصر مقدار انحلاله وقرّب
نهايته البشعة التي لانجاة منها وهو يراها رأى العين . وهذا سر ما في
المقطوعات الماضية من هول لا يطاق ، أننا نرى مخلوقا بشريا يرقب
بعينه المرعوبتين موته التدريجي دون ان يستطيع فرارا . وما نحسب
في الوجود كله ميتة ابشع من هذه الميتة .

وهكذا يقدم لنا هذا العاصي المعاند أحم رد على اندفاعه وتماديهِ :
ان مغبة الأثم الموت الأليم .

لا نرد عليه بتحريم الدين ولا بمواعظ الأخلاق ، بل نترك خاتمة

سيرته تعطى الرد العملى البسيط على كل ما سبق من جموحه وطول
صخبه وشدة استهتاره ، ان الجسد لا يستطيع ان يتحمل نتائج
هذا الاسراف .

فى هذه الخاتمة العبرة الكافية ، وفيها الرد الحاسم على تزويقه للفجور
وتزيينه للإباحية — فلقد كانت أيامه الأخيرة بالغة الهول والألم ،
وكانت عيتمه من أفظع الميتات التى يتجرعها بشر

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرء بشبابه فاذا عصارة كل ذاك — اثم

حين يقر المذنب على نفسه بكل ذنبه فانه يفتح للحكم العدل باب
الرحمة به . فيتلمس له الأسباب المخففة . وقد اعترف أبو نواس على
نفسه بكل ذنبه

فمن كان ذا عذر إليك وحجة فعذرى إقرارى بأن ليسلى عذر

مالى إليك وسيلة إلا الرجا وجميل عفوك ثم انى مسلم

قد أسأنا كل الإساءة يارب فصفحاً عنا إلهى وعفوا

فلأوجب علينا ان نتذكر له الظروف التى تخفف من جريته .

لا نريد ان نخليه من كل التبعة الخلقية ، فنحن لا نخلى مخلوقا بشرياً
رزق قدرا من العقل من كل التبعة الخلقية مهما تكن ظروفه ويعظم
اضطراره ، لأننا نعتقد ان بكل إنسان عاقل نصيبا من القدرة على
ضبط سلوكه والتحكم فى غرائزه . بشران لا ثالث لهما يخلوان من كل
مسئولية : الطفل والمجنون . وأبو نواس برغم ارتداده الى عدم
مسئولية الطفولة لا يستطيع أحد ان يدعى انه يستوى والطفل .
وهو برغم رقصه المخيف على حافة الجنون لم يسقط فيه بل ظل محتفظا
برشده ووعيه الى لحظاته الأخيرة . وواضح فيه انه مهما تكن عقده
الصعبة وصراعاته العسيرة فانه تعمد ان يزيد أمره سوءا بما أرغم عليه
نفسه من الشطط والاندفاع .

ولكننا يجب ان نتذكر له رقة تكوينه وإرهاب حساسيته منذ
الولادة ، وان نتذكر له حرمانه رعاية أمه فى سنه المبكرة وفى طفولته
الضعيفة العاجزة ، وان نتذكر له أخيرا فساد عصره وتأثره هو بهذا
الفساد . وهذا العامل الأخير هو ما نريد ان نختم دراسته بشرحه ،
فهو عامل لا بد أن ندخله فى أى تقدير صحيح لنفسيته ، دعك
من واجب العدل والانصاف . فلننظر الآن فى مقدار تأثره
بمؤثرات بيئته .

ونبدأ بأن نقرر هذا التقرير الأكيد : أبو نواس لم يدخل على
عصره فسادا لم يكن بهذا العصر .

تأمل في إثميه العظيمين : شرب الخمر والفسق بالعلمان . أما هذا الأخير فقد بينا في فصلنا الثاني مقدار شيعوه في معاصريه ، وخاصة سراتهم وكبرائهم ، وحللنا هذا الشيوع تحليلا مفصلا وضح أسبابه المتنوعة ، وشرح الى أي حد تأثر ابو نواس به . فهو منذ ان برز من بيته بعد زواجه ملقفته ايدي المفسدين من الكبراء والعلماء والشعراء . صحيح اننا سلمنا بأنه هو كان فيه استعداد للانحراف ، بسبب رقة تكوينه وبسبب أحداث بيته الخاصة . ولكن لو لا تهالك هؤلاء عليه يستمتعون بجماله ويستظلون ضعفه لما قوى فيه هذا الانحراف وبرز واستشرى وصار الى التواء دائم عنيد .

وأما الخمر فبلغ انتشارها في عصره أمر معروف لا يحتاج منا الى إطالة في وصف . فلقد شاع هذا الشر واستشرى من قبله بجيولين أو ثلاثة اجيال ، حتى لم يقع فيه الأغنياء العاقلون والفنانون الباطلون وحدهم ، بل باء بائمه الكثيرون من رجال العلم والفضل وكان بعض من اشتهروا بالدين والتقوى وبرزوا في الفقه والحديث والكلام يشربون الخمر في حياتهم الخاصة ، بل تلطخ بهذا العار عدد كبير من الخلفاء — امراء المؤمنين وقادة المسلمين .

✓ فمعظم خلفاء بني العباس شربوا الخمر ابتداء من الهادي ، والهادي قد عطل حد الشارب ، وهو تعطيل استمر فيه الخلفاء من بعده ، حتى المهدي الذي يقررون انه لم يشربها حتى ابن هرمة من عقابها في

قصته المشهورة حين كتب إلى عامله بالمدينة : من جاءك بابن هرمة
فاجلده مائة واجلد ابن هرمة ثمانين ! هكذا استطاع المهدي أن يقنع
ضميره بأنه لم يعطل حكم الشرع ، فكان ابن هرمة يختال في الأسواق
متبجحاً ينادى : أين من يشتري الثمانين بمائة !

ولأنريد أن نمضي في وصف هذه الحقيقة المخزية ، وإنما نكتفي
بأن نقرر أن الظاهرة الاجتماعية الكبرى التي تلحظ في عصر أبي نواس
هي شيوع النفاق . كان كبار معاصريه يستخفون من الناس ولا
يستخفون من الله . كانوا يرتدون أمام العامة مسوح التعفف والوقار
ويتخذون سياء التقوى والورع ثم يخلون إلى أنفسهم أو يختلون
بخاصة أصدقائهم وصفوة ندمائهم فيرتكبون أشنع الموبقات ويطلقون
العنان لأشد ضروب التهلك والابتذال ، ويجب أن نتذكر دائماً أن
ما أخذه هؤلاء الكبراء على أبي نواس لم يكن ارتكابه الإثم بل جهره
به وتصريحه بما يفعل وما يفعلون هم خفية . وهذا واضح من شعره
وقد قدمنا للقارئ أمثلة كافية منه في هذا الفصل والفصول الماضية ،
فالجدید في شعره ليس دعوته إلى ارتكاب المعاصي بل دعوته إلى
الجهر بارتكابها ، ومعظم دفاعه ليس عن إتيانه الإثم بل عن تصريحه
به . ولقد صور هذا النفاق المخيف الذي كانوا يريدون حمله عليه
في قصيدته الجميدة

ألم تر انى حين أغدو مسبحا بسمت أبى ذر وقلب أبى جهل
وأخشع فى نفسى وأخفض ناظرى وسجadtى فى الوجه كالدرهم المطفى
وأمر بالمعروف لا من تقيّة وكيف وقولى لا يصدقه فعلى
ومحترق رأس الرياء ودفترى ونعلى فى كفى من آلة الختل
أؤم فقيهاً ليس رأى بفقّه ولكن لرب المرد مجتمع الشمل
فكم أمرد قد قال والده له عليك بهذا أنه من أولى الفضل
يفر به من ان يصاحب شاطرا كمن فر من حر الجراح إلى القتل!

وهذه قصيدته البارعة إلى الفضل بن الربيع وزير الأمين حين
حرم عليه الخمر والقاء فى غيابة السجن ، وكل بيت من أبياتها الفذة
يقطر السم الزعاف كرهاً للنفاق الذى يحملونه عليه ، ونحن لا ندرى
حين نسمع سخريتها اللاذعة انضحك ام نحزن

انت يا بن الربيع الزمتنى النسك وعودتنيه ، والخير عاده
فارعوى باطلى واقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت للحسن البصرى فى حسن سمته وقتاده
المساييح فى ذراعى والمصحف فى لبتى مكان القلاده
وإذا شئت ان ترى طرفة تعجب منها ، مليحة ، مستفاده
فادع بى - لاعدمت تقويم مثلى ! وتفظن لموضع السجاده !
تر اثرا من الصلاة بوجهى توقن النفس انها من عباده
لو رآها بعض المرائين يوماً لا شتراها - يعدها للشهاده !!
ولقد طالما شقيت ولكن ادركتنى على يدك السعاده !

هذه القصيدة من أروع الشعر العربي وأحقه بالخلود، هي لا تصور
النفاق المنتشر في عصر أبي نواس وحده، بل تصف النفاق الذي عم
مصرنا المعاصرة أيام الحكم البائد الذي لم يرتفع نيره عن عنق الأمة
إلا من مدة وجيزة، حين كان عدد كبير من وزرائنا وسرانا وعلى
رأسهم ملكهم «الصالح»، يحملون المسابح ويتسابقون إلى صلاة الجمعة
بالمساجد الكبيرة لتنتشر صورهم صحفنا المصورة على الناس في مناظر
التعبد والابتهال، ثم يكون منهم في حياتهم الخاصة وبؤرهم
الارستقراطية ما كان مما لا نحب أن نمضى في وصفه. ولقد وصل
أبو نواس ذروة سخره في بيته الشامن حين وصف محاولة هؤلاء
المرائين أن يخادعوا الله عز وجل، إن الله عزيز ذو انتقام.

فان ظننت أنه يتحامل على عصره أو يخالي في وصفه بالنفاق
فهذه أبيات يحيى البرمكي تفضح نفاقهم فضحا تاما. ولكن تذكر وأنت
تنعم النظر فيها أنه قالها يوصي بها ولده! هكذا كانوا ينصحون أولادهم،
وهذه هي المثل الخلقية التي كانوا يضعونها أمام النشء:

انصب نهارا في طلاب العلا	واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا مقبلا	وغاب فيه عنك وجه الرقيب
فبادر الليل بما تشتهي	فانما الليل نهار الأريب
كم من فتي تحسبه ناسكا	يستقبل الليل بأمر عجيب
ألقى عليه الليل أستاره	فبات في هو وعيش خصيب
ولذة الأحق مكشوفة	يسعى بها كل عدو مريب

ينسى قائلها ان هناك رقيبا لا نغيب عنه أبداً ولا يخفيها عنه
ظلام الليل . ومن الطريف ان تحصى المرات التي ذكر فيها « الليل » .

ولم حرم عليه الأمين الخمر في آخر حياته ؟ لم يدفعه إلى هذا
استنكار لسلوك أبي نواس أو امتثال لأوامر الدين ، فقد كان هو من
أشد الناس تهالكا على الخمر ومن أكبر الخلفاء تبذلا وأجرحهم في
سبل اللهو والعريضة ، وطالما نادى أبانواس وكانت له معه قصص تدمي
الحدود خجلا ، وإنما حرم عليه الخمر وانقلب عليه وتنكر له بعد
طول المصادقة لما وقع الخلف بينه وبين أخيه المأمون واستغل رجال
المأمون صحبتهم الداعرة فكانوا يذكرون الناس بقبائح شعره ومجونه
ويحملون على خليفة يقرب إليه هذا الماكن . فجزع الأمين وكانت
حيلته هذا الغدر القبيح . ولكن هل انقطع هو عن سكره وتبذله ؟
بل استمر ممعنا فيهما وقرب إليه ما جئنا آخر هو الحسين الخليلع الذي
بقي نديمه حتى مات .

لم يدخل أبو نواس على عصره فسادا لم يكن فيه . والذي فعله هو
أنه صرح بما كانوا يفعلونه في السر . صحيح اننا حين حللنا دعوته
إلى المجاهرة بالاثم وجدناها في أصلها اندفاعا هستريا تحذوه الرغبة
في التشهير بالنفس والانتقام منها ، ومحاولة عصبية في التغلب على عمق
شعوره بالذنب ، وارتدادا إلى عدم مسئولية الطفولة تخلصاً من التبعة
الخلقية . ولكن هذا كله لا يلغى نصيبها العظيم من الجرأة ، وهو ان

كان قد وجد كل هذه المتنفسات العصبية في جهره بالاثم فلا شك أنه
كان إلى جانب ذلك يكره النفاق كرها صادقا ويمقتة مقتا عظيما .
انظر في أبياته :

اشرب فديت علانيه أم التستر زانيه
ودع التستر والريا فما هما من شانيه

لو اطعنا ذا عتاب لأطعنا الله فيها

وإذا نزعنا عن الغواية فليكن لله ذاك النزاع لا للناس

أأرفضها والله لم يرفض اسمها وهذا أمير المؤمنين صديقها
وهذا البيت الأخير شطره الاول منفسطة محض ، ولكن شطره
الثاني حقيقة لا شك فيها .

ومن مظاهر صراحتة أنه أبي إباء تاما أن يتلمس الحيل العديدة
التي كان يلجأ إليها الكثيرون من معاصريه لتحليل الخمر أو أنواع
منها . وقد حللها بعض المعتزلة تحليلا تاما بأن قالوا ان الله نهى عن
شربها نهى تأديب لانهى تحريم ، وأنه لو أراد أن يحرمها لقال حرمت
عليكم الخمر كما قال حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ! أما
سائر الفقهاء فقد اختلفوا في مدلول الخمر وفي علة تحريمها ، فقاد هذا

الخلاف بعضهم إلى أن يحللوا أنواعا من الأشربة يحرمها البعض الآخر ،
ولكن أبا نواس أبى أن يستعمل تبرير أولئك المعتزلة وأبى أن يتصنع
أنه يشرب منها نوعا يحلله البعض ، وأصر على الاعتراف بأنه يشرب
منها النوع الذى لا شك فى تحريمه . وأقواله فى هذا المعنى كثيرة ، وقد
سمعنا منها قوله :

لا تسقنى الدهر اما كنت لى سكنا إلا التى نص بالتحريم جبريل
ومنها أيضا قوله :

إننا نشرب منها فاعلى ذاك يقينا
كل ما كان خلافا لشراب الصالحينا

لاحظ تأكيده المصر « فاعلى ذاك يقينا » . وما نحسبه نطق
« الصالحينا » إلا برنة سخرية . وله أبيات كثيرة فى ذم الطلاء وهى
الخمير المطبوخة التى حللها كثيرون .

هذا ويبدو لنا ان من أهم الأسباب فى انتشار شعره ورواجه فى
عصره ، وفى حب الناس له وعطفهم عليه وتحمل معظمهم لإفراطه ومساخمتهم
لفجوره المسرف ، إعجابهم الباطن بصدقه وتقديرهم لجرأته وصراحته
وإدراكهم أنه إنما يجهر بما يفعله كبرائهم خفية وتسترًا . فاحترمه
الناس لما رأوه يصرح بما يفعله الكثيرون فى السر وما يتوق كثيرون
آخرون الى فعله ولكن تمنعهم قلة المال أو مخافة العقاب . ورواج
شعره هذا الرواج العظيم هو فى حد ذاته شاهد قوى على صدق تعبيره

عن حال العصر وأهواء أغلب الناس سواء استطاعوا أو لم يستطيعوا
أن يلهو لهوه . ويعزز رأينا هذا الخبر ننقله من أخبار ابن منظور :
« وقال والبة بن الحباب : رأيت فيما يرى النائم كأن إبليس اتاني
فقال : ترى غلامك الحسن بن هانيء ؟ قلت : ما شأنه ؟ قال : ان له
لشأنا ! فوالله لأغوين به أمة محمد ثم لا أرضى حتى ألقى محبته في قلوب
المرائين من أمته وقلوب العاشقين لحلاوة شعره . »
ولسنا ندرى ارأى والبة حقاً هذه الرؤيا ، ولكنها قصة هامة
المغزى . تدبر قوله « في قلوب المرائين . »

لسنا نريد بكل هذا أن نفضل صراحته على نفاقهم ، وإلا انسقنا
في موضوع طويل يخرج تمام الخروج عن حدود بحثنا الراهن ، وهو
أى السلوكين خير للمجتمع ، التصريح بالاثم الذى يوجد فيه أم
إسدال الأستار عليه ، وهل يجوز للفن أن يصور النواحي الشريرة
في الحياة . وهذا موضوع يشير الكثير من المسائل الصعبة التى تختلف
فيها الآراء اختلافاً شديداً ، عن علاقة الفن بالمجتمع ، وعلاقة الفن
بالأخلاق . وعن لزوم الصدق فى الفن ، وعن معنى هذا الصدق ، وعن
مبلغ ضرر المجتمع من صراحة الفن ومبلغ استفادته منها ، وأيهما
ترجح كفته ، وكلها مسائل تخرج عن موضوع كتابنا هذا ، وهو تحقيق
نفسية أبى نواس . وكل ما يهمننا فى هذا الشأن هو أن نحدد مقدار
تأثره بعصره ومقدار تأثيره فيه وإن كنا سنضطر إلى بعض التكرار .
وفى هذا نقول :

إن دراسة أبي نواس توضح لنا مقدار الترابط بين عوامل التكوين الفردى وبين مؤثرات البيئة في بناء الشخصية ، وتعيننا على الإجابة عن هذا السؤال الصعب المشهور : إلى أى حد يتأثر الفرد الممتاز بظروف عصره وإلى أى حد يتأثر بتكوينه الفردى (١) .

لولا مؤثرات البيئة التى وجد فيها أبو نواس لما اتخذت شخصيته هذا القالب الخاص الذى تشكلت فيه . فالذى حدث هو أن نفسيته الحساسة قد التقطت كل مؤثرات عصره وتأثرت بها تأثرا قويا . ولكنها لما التقطتها صاغت صياغة خاصة وزادت من تحددها وعنفها ، ثم عادت فردتها إلى العصر معظمة بالغة الأرهاف .

فنحن نستطيع أن نشبه حواسه البالغة الدقة السريعة التأثر بعدسة عظيمة الدقة والحساسية تلتقط المؤثرات الخارجة وتركزها وتطبعها طبعا عميقا بليغا على نفسيته الخاصة ، ونفسيته هذه أشبه بفلم بالغ الرقة واللفظ يتقبل تلك المؤثرات الخارجة تقبلا سريعا حادا . ولكن النفسية البشرية لا تقتصر على أن تكون كالفلم الحساس

(١) كل شخصية فهى تتأثر بظروف عصرها وبكوينها الخاص معا ، ولكن مقدار التأثير بكل منهما يختلف بالطبع باختلاف الشخصية المدروسة . ففي كتابنا «شخصية بشار» درسنا شاعرا تأثر بظروف عصره أكثر مما تأثر بتكوينه الخاص فى الصياغة النهائية لشخصيته . وفى كتابنا «ثقافة الناقد الأدبى» درسنا شاعرا آخر هو ابن الرومى حدث له عكس هذا تماما . وها نحن أولاء فى كتابنا هذا قد درسنا شاعرا تساوى فيه العاملان وتعادلا تعادلا تاما .

الذى لا يفعل شيئا سوى التقبل الدقيق والحكاية الالمانية ، بل هي
نفسها آلة حية نباضة زاخرة بالمؤثرات الخاصة التى تؤثر فى الصور
المقبولة وتطبعها بطابعها التكويني المتميز .

فأبو نواس قد تعلم من عصره شرب الخمر وتعلم منه حب الغلمان ،
بل تعلم منه أيضا صورا خاصة لهذا الحب ، تعلم منه حب الغلمان
المسيحيين والخروج إلى الأديرة للشراب ولمغازلة الرهبان الملاح .
فهذه ظاهرة اجتماعية شاعت فى عصره ولم تقتصر عليه .

ولكن نفسيته الخاصة تتقبل كل هذه المؤثرات تقبلا عنيفا
حاداً ثم تضيف إليها خصائص تكوينها فتمزجها مزجا جديدا فإذا
خرجت عنها خرجت بمتزجة بعناصر لم تسبق لها سوابق فى الأدب العربى .

فالناس فى عصره وقبل عصره شربوا الخمر وأحبوها ونظموا
فيها الأشعار الجميلة المطربة ، ولكنه يأتى إلى الخمر فتصادف منه
حاجة خاصة لم توجد فى غيره وتنسجم مع مييزات فى تكوينه النفساني
لم تصادفها فى سواه . فلا يجد فيها مجرد التلذذ العادى المعهود من قديم
ولا يكون ادمانها عنده مجرد الأدمان المعروف . بل يجد فيها اشباعا
للذة جنسية غريبة يلتبس فى الخمر إرضاءها إذ حرم لذة النساء
فاتخذها نوعا من العوض . ويجد فيها أيضا تعويضا لما حرمه من حب
الأم وعطفها . وباقتران هذين العنصرين عنصر اللذة الجنسية وعنصر
الحب البنوى يجد فيها تحقيقا لنزوعه الفاسق وتهدة وقتية للسعير الذى
أضرمه فى قرارة نفسه عجزه عن حل العقدة التى ربطته بأمه . ويجد

فيها إلى جانب هذا كله إرضاء لنزعته التقديسية الحسية التي نشأت عن ارتداده إلى الأصل البشري البدائي الذي يقرب بين ثورة الشهوة ونشوة الدين في انفعال مزدوج والذي يقدر الخمر ويرى فيها روحا الهية تبعث في النفس البدائية إحساسات الخضوع والرغبة والتعبد . ويجد فيها أخيرا معينا على ارتداده إلى عدم مسئولية الطفولة ، فلما نظم فيها أشعاره لم تعد الأوصاف المعهودة للخمر في عصره وقبل عصره بل برزت فيها كل هذه العناصر المتنوعة التامة الجدة على الشعر العربي .

والكثيرون من معاصريه أحبوا الغلمان وفسقوا بهم . وقد تعلم هو منهم هذا الانحراف ، ولا نريد أن ننكر أن بعضهم قد نظم في هذا الفن قطعا لا تقل عن شعره صدق عاطفة ، بل يخيل إلينا أن أفرادا منهم قد نشأ حبهم للغلمان عن شذوذ حقيقي سببه التواء جسماني أو تعقد نفسي ، ولكن هذا الانحراف صادف منه مرتعا خصيبا لم يلقه في غيره بنفس التمام والكمال حتى أننا لانجد بينهم جميعا من يسرف في هذا الغزل إسرافه أو يلهب التهابه . والحقيقة الواضحة هي أن أغلب معاصريه من الشعراء والفنانين والأغنياء الموسرين اتخذوا الغلمان مظهرًا من مظاهر اللهو والعبث ونظموا فيهم أشعارا لا تخرج عن التطرف والتنادر ، حبهم للذكور لم يكن سوى الظاهرة الاجتماعية المفتعلة التي لاحظنا بروزها في مختلف الحضارات حين يتطرق إليها التحلل الخلقي ويكثر التنعم والرفة فيمتفنن المثقفون المنعمون الذين بدأوا في الانحلال في ابتكار طرق جديدة للتلذذ ويعافون اللذة المعهودة مع

النساء فتأجأ عبقرتهم المنحلة إلى استكشاف فنون جديدة من الأثم .
 أما أبو نواس فيجىء إلى هذه البيئة الموبوءة فيصادف هذا الانحراف
 في صميم نفسه حاجة عميقة جديدة نشأت عن صدوفه عن النساء
 لا صدوف البوهيمى العايب بل صدوف المريض بداء نفسانى عضال
 كرهه في الأنوثة . وهكذا لا نجد شعره في الغلمان مجرد نظرف
 حضرى أو تعايب صناعى بل نجده شعرا جادا تام الجدية ملتها عظيم
 الصدق يصل درجة لم يسبق لها مثيل في الشعر العربى من التفانى
 والتكريس .

وهو كان يخرج مع الكثيرين من معاصريه إلى الأديرة يلتمسون
 خمرها ويفازلون فتيانها المترهبين . ولكن رفاقه لم يلتمسوا سوى
 المتعة الحسية الصرف ، أما هو فيستكشف في حياة الأديرة وفي
 خمرها ورهبانها وفي امتزاج نشوتها الحسية بنشوتها الدينية إشباعا
 عظيما لانتكاسه إلى الأصل البشرى التجسدى الذى كان يمزج بين
 هياج الحس وحمية التعبد . والآخرون يصفون جمال الأديرة وحسن
 بسايتها وجودة خمورها وملاحة رهبانها ولكنهم لا ينشئون مثل
 شعره العجيب الذى يطرب فيه لناحيته الروحية ويتمشى بعباداتها
 وصلواتها وينهر أمام تقشفها ونسكها في نفس الوقت الذى يطرب
 فيه لمتعتها الحسية .

وغيره من معاصريه تغزلوا بالغلمان المسيحيين ولكنهم إنما
 افتتنوا بجمالهم الجسدى البارح فان أشاروا إلى دينهم بإشارات تنادر

ومداعبة . أما هو فقد أحبهم ذلك الحب الثنائى العجيب الذى امتزج فيه افتتانه بملاحتهم الجسمانية وافتتانه الصادق الجاد بدينهم حتى هم أن يمرق من الإسلام إلى ديانتهم مروقا جادا لا تفكه فيه ولا هزل لشدة ما فتنته ديانتهم ذات الطقوس التجسدية التى وافقت تكوينه النفسى الخاص موافقة قوية .

فلما خرج شعره إلى الناس بهرهم بهرا شديدا لما أحسوا فيه من الحرارة اللاخثة والجد التام ، فأثر فيهم وفى من جاء بعدهم أعظم التأثير . فالذى كانوا يفعلونه خفية وتكتا أو عبثا وتظرفا جعله هو مذهبا جادا يجهر به ويدافع عنه ويضحى فى سبيله ويتحمل من أجله السخط الدينى والحزى الاجتماعى والذم الخلقى ، وما كان ليتحمل هذا كله لو كان سلوكه مجرد التفنن الحضرى الشائع فى عصره ولم يصدر عن اضطراب نفسانى يدفعه دفعا ويعجز عن مقاومته .

وهكذا نرى كيف التقط أبو نواس مؤثرات بيئته فجمعها وركزها فى نفسه ثم تمثلها تمثلا خاصا طبعها فيه بطابعه المتميز وعاد فلقاها على عصره فى صيغة تامة الجدة وفى قوة معدومة النظير . وهذا سر دعوته المشهورة إلى التجديد وإلى إخلاص الشاعر لنفسه وتجاربه وعصره ، وهى دعوة طرقها كل من درس أبا نواس ولكنى لم أجد منهم من تعمق أسبابها الدفينة . ومن هذا كله نرى لم كان شعره فى الخمر أشهر شعر خمري فى الأدب العربى ولم كان غزله بالغليلان أشهر غزل من نوعه ولم كانت دعوته إلى الاباحية وحضه على المجاهرة بالاثم أعنف

دعوة وأقوى حض مع اكتظاظ الأدب العربي بالمستهترين والخلعاء .
فالسبب هو أن مافعله الآخرون نظرفا ومعايشة وما اتخذوه ميدانا
لاظهار تفننهم و « عصريتهم » ومجالا للتفاخر بفتوتهم وشطارتهم -
أو كما نقول في أسلوبنا الحديث « بوهيميتهم » - فعله هو عن حاجة
عميقة ملحة وعن اضطرار نفساني غلاب فكان فيه جادا تام الجدية .
نحن نرى في أبي نواس مثلا للحقيقة المعروفة في تاريخ الحركات
الجديدة في مختلف العصور والمجتمعات ، وهي أن عظماء المجددين
الذين يصيرون قادة الحركات الفنية أو الاجتماعية الجديدة وحملة لوائها
ليسوا دائما أول من بدأها ، وإنما يكونون أتم أهل عصرهم استعدادا
لقبولها وتركيزها ثم أتمهم قدرة على تمثيلها وإذاعتها ونشرها بما أعدهم
استعدادهم الجسماني وتكوينهم النفساني ليكونوا أشد الناس تقبلا
للمؤثرات الجديدة وأعنفهم تأثرا بها وأقواهم حاجة اليها وانسجاما
معيها . فجمعوا النشاط المشتت في الميدان المبتر وأضافوا اليه من
أنفسهم حرارة جديدة اكسبت الدعوة حدة وتعصبا وأعطتها القوة
الاندفاعية الطاغية التي تحتاج اليها كيما تتغلب على التقاليد الراسخة
فقدادوا الزحف الجديد وصاروا زعماءه وأبطاله .

ثقافة الناقد الأدبي

يقاوم بعض النزعات الضارة ويصحح عدداً من الأخطاء الشائعة في دراسة الأدب العربي وتدريسه ، ويشرح السبب في تدهور نقدنا المعاصر ، ويصف للنقاد الثقافة التي تلزمهم حتى يتقنوا عملهم ، ويريهـم كيف يربطون في دراستهم بين الأدب والحياة ، ويدعم قضيته بدراسة مفصلة لشخصية ابن الرومي وفنه الشعري .

أهم موضوعاته : كيف يدرس الأدب العربي لطلبة المدارس ؟ لم يبعضهم هذا التدريس في الأدب العربي وينفرهم عنه ؟ كيف نصلح عيوب هذا المنهج ؟ ما الخطأ الأساسي في نقدنا المعاصر ؟ ما الطريقة الصحيحة للانتفاع بمقاييس النقد الغربية ؟ ما الحد الأدنى الذي يلزم الناقد العربي من الثقافة الغربية ؟ خلاصة الحقائق العلمية الهامة التي يلزم الناقد معرفتها قبل أن يحسن نقد الأدب . التكوين الجسماني والتكوين النفسي للفرد واثـرهما في بناء شخصيته . المخ والجهاز العصبي والجهاز الجنسي والجهاز الغدي . مثال من شخصية ابن الرومي . الأجناس البشرية والعبقرية الفنية . عبقرية ابن الرومي . كيف يربط الناقد والمدرس بين الأدب وبين تجارب الحياة الانسانية حتى يكون

نقده أو تدريسه حياً ممتعاً يتعمق منابع الأدب في النفس البشرية
ولا يقتصر على الدراسة الآلية العقيمة المملة . مثال من فن
ابن الرومي .

لا غنى لك عن قراءة هذا الكتاب : —

إذا كنت مدرساً للأدب العربي وأردت أن تكون مدرساً كفءاً
ناجحاً يحى هذا الأدب لطلبته ويشوقهم الى قراءته ويبصرهم بمتعته
وحيويته ويكتسب إعجابهم وشكرانهم ...

إذا كنت ناقداً أديباً يريد ان يصدر نقده عن فهم شخصي صحيح
لمناهج الدراسة الحديثة ويتجنب الاخطاء الكثيرة المحزنة التي يقع
فيها الكثيرون ، ولا يقتصر على الدراسة الشكلية التقليدية أو
المحاكاة لأساليب النقاد المحدثين دون تفهم عميق لطبيعة النقد
الجديد ...

إذا كنت قارئاً مولعاً بالأدب وأردت ان تزداد بصراً بمتعته
وأن تكتسب فهماً جيداً بالتيارات الحديثة في تقدير الأدب .
الكتاب الذي قال كبير المستشرقين ، الأستاذ هـ . ر . جب ،
في رسالة إلى مؤلفه :

« الصفة التي تميزه فوق كل شيء هي الاختلاص ، وهذه هي الدعامة
التي لا بد منها لكل عمل جيد في أي ميدان من ميادين البحث ، وهي

تنبىء عن تفكير صادق لا يقنع بالتقارير السطحية المرتجلة أو
الآراء التى يرددنها الناس .

« إنك باحتجاجك على هذه الطريقة الشائعة فى دراسة الشعراء
والكتاب ، وباعطائك مثالا على التحليل المتعمق ، قد أدت خدمة
جليلة الى دراسة الأدب العربى ، ولكنك لم تخدم الأدب العربى
وحده .

« فإن هذه المعالجة الصريحة لجهود الانسانية ومشاكلها التى تجمع بين
النزاهة الدقيقة وبين الفهم المتعاطف ، هى ما يحتاج العالم أجمع —
وليس مصر وحدها أو العالم العربى وحده — إليه اليوم أشد
الاحتياج . »

فى أربعائة صفحة كبيرة محلاة بالصور والرسوم على ورق جيد
يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن المكاتب الشهيرة
(الثمن ٤٠ قرشاً)

للمؤلف

شخصية بشار

« تحليل الشخصية » تعبير يروج كثيرا بين متعلمي الأدب ومعلميهم ، فله رنة فخمة تكسب مستعمله اعتبارا وزهوا . أولاتنبه عن اتقان للدراسة العصرية ، وتمكن من طرق النقد الحديث ؟

ولكن أغلب من يستعملون هذا التعبير لا يدلون على بصر صحيح بمعناه . فما المعنى الصحيح لـ « تحليل الشخصية » ؟ كيف ندرس شخصية أديب ؟ كيف نحلل عناصرها المختلفة ونستكشف العوامل الفردية والاجتماعية التي انتجتها ونربط بينها وبين ظروف عصرها ؟ كيف نؤلف بين كل هذه العناصر التي قد تبدو متنافرة متناقضة في وحدة حيوية منسجمة تسمى « شخصية الأديب » ؟

يجيب المؤلف على هذه الأسئلة الهامة ، لا إجابة نظرية مبهمه ، بل إجابة عملية استقرائية بدراسة مفصلة لشخصية بشار بن برد غرضها تدريب القارئ في خطوات تدريجية متمهلة على الطريقة الناجحة في تحليل الشخصية الأدبية . ولا يكتفي المؤلف بعرض نتائج بحثه على القارئ بل يبين له بالتفصيل الدقيق كيف توصل الى هذه النتائج من دراسته لأخباره وأشعاره حتى يمرنه على المطالعة الناقدة للمصادر

القديمة واستنباط الصورة الأدبية منها ، مبيناً أخطاء النقاد السابقين حتى يتجنب القارئ الوقوع في نظائرها إذا أراد أن يقوم بدراسة تحليلية لشخصية أديب .

قال عنه ناقد « الجمهور المصرى » : —

« إن إخلاص مؤلفه وبراعته في العرض والاخراج يحى شخصية بشار القلقلة المتمردة فإذا أنت مع الشاعر في تلك العصور البعيدة تشهد عملاقاً أعشى دميماً أثقلته عاهاته بطاقة نفسية جبارة وراحت هذه القوة الهائلة تنفجر على مدى حياته الطويلة كالبراكين فتثير جوانب مفزعة من الظلام وتشيع جوانب رائعة من النور . . .

« يجتذب القارئ بمجهوده الدائب الملح في التحليل والتعليل وتعقب الحوادث وردها إلى أسس منهجية جديدة في النقد . . . ومن بين هذه الأضواء تبدو شخصية بشار رائعة عارية . . .

« أيها القارئ — قد يبكيك بشار في هذا الكتاب ، وما أحراه أن يبكيك . . . وقد تضحك معه وقد تسخر . . . وقد تصدك الفكرة السابقة عن صداقة الكتاب أو تحد من لهفتك إليه . . . ولكنك لن تستطيع أن تترك هذا الشاعر المضطهد الذى لا تنفد جوانب شخصيته وشاعريته ، لن تملك أن تتركه تشيعه لعنات الحاقدين وغلاة الرجعيين من أعداء حرية الفكر ويشيعه إلى الفناء ظلم النقاد وهوى المؤرخين . . . يطلب من مكتبة النهضة المصرية والمكاتب الشهيرة . في ٢٧٠ صفحة من القطع المتوسط

(الثمن ٣٠ قرشاً)

مَطْبَعَةُ السَّعَادَةِ بِمِصْرَ

- OCT 1986

BR

70

DUF

612020424
J-13229369

1974

APR

1974

MAR

- OCT 1986

PJ
7701.6
N8
Z7
1952
c.1



1 0 0 0 0 0 0 3 1 2 8

